0 3

دفاتر ممدوح حمادة



دفتر القرية

قصص من أم الطنافس



دفاتر

ممدوح حمادة

دفتر القرية

(أم الطنافس 1)

قصص قصيرة

دفتر القرية



دفتر القرية (أم الطنافس 1)

قصص قصيرة

تأليف: ممدوح حمادة

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج الفني: فايز علام

تصميم الغلاف: لؤي حازم

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 27 - 2

الطبعة الأولى: 2017

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

القصص

الخديعة

عندما دخل الغريب إلى القرية يحمل حقيبته الجلدية البنية، وجد الشوارع شبه خالية، ليس فيها حركة إلا لزوبعة صغيرة أثارتها رياح خفيفة سرعان ما خمدت وتبدد غبارها، وبعد أن سار أمتاراً قليلة لمح خلف المنعطف رجلاً مسناً يجلس على حجر أمام بوابة أحد المنازل، فتوجه إليه فوراً، وبعد أن رمى السلام عليه وقام الآخر بالرد، سأله:

- «هل تعرف منزل المختار؟».

تلفَّت المسنُّ حوله وردَّ هامساً:

* «لا يوجد لدينا مختار في القرية».

- «ولكنهم أبلغوني أن هناك مختاراً» وأخرج ورقة وقرأ اسمه «اسمه مرجان مسلم ضرغام».

تلفت المسنُّ فيما حوله من جديد وقال هامساً:

* «يوجد مرجان مسلم ضرغام، ولكنه ليس مختاراً، فالمختار يتم اختياره، أما مرجان مسلم ضرغام فقد قام بتعيين نفسه بنفسه، فكيف يكون إذاً مختاراً وهو ليس بمختار؟».

- «حسناً، أين بيت هذا الشخص؟».

* «تابع السير حتى تنبح الكلاب. فقد ربى حوله الكثير منها، وكلها شرسة ومسعورة، فإن عضك كلب في مؤخرتك لا تقل إن المسن لم يحذرني».

شكره الغريب وتابع طريقه مفكراً، هل يتوجه إلى بيت مرجان مسلم ضرغام الذي أصبح لديه نفور منه بعد أن قال المسن ما قاله، أم يتوجه إلى المدرسة التي حضر لإدارتها؟ ثم قرر التوجه إلى المدرسة.

في المدرسة التقى أولاً بالأستاذ يوسف الذي جلب له ملفَّات الطلّاب بناء على طلبه، طبعا بعد أن شرب الشاي وتعرَّف على غرفته التي سيقيم فيها وغير ذلك من التفاصيل غير المهمة. كان تدني مستوى الطلاب أول ما لفت نظر الغريب في الملفَّات التي راجعها على عجل، وتساءل مستغرباً عن سر ذلك، فتلفَّت الأستاذ يوسف فيما حوله وهمس له وعيناه تراقبان الباب:

- «لا سر في ذلك، طالما أن الأمر والنهي بيد مرجان مسلم ضرغام، فلن تقوم للعلم قائمة في هذا البلد».

ثم صمت بشكل مفاجئ عندما دخل الأستاذ محمود الذي رحَّب بالمدير الجديد وتمنى له إقامة سعيدة في القرية. ورداً على سؤال المدير الجديد حول مستوى الطلاب المتدني أجاب الأستاذ محمود بنبرة تدل على عدم أهمية الموضوع:

- «بكل بساطة لأن طلابنا ونحن لا نشعر بالحاجة إلى العلم، فعندنا مرجان مسلم ضرغام الذي قال كل ما يمكن قوله في جميع المواضيع، وإذا تبادر إلى ذهنك سؤال فما عليك إلا مراجعة أقوال مرجان مسلم ضرغام التي طليت جميعها على جدران القرية لتسهيل الحصول عليها».

ومن أجل التعرف على القرية أكثر، تجول المدير الجديد في القرية ليلاً فوجدها أيضاً شبه خالية وشوارعها معتمة لولا بعض الأضواء الخفيفة التي تنبعث من نوافذ يتهامس خلفها سكانها بكلمات لم تكن واضحة. وبعد فترة من التجول التقى المدير بشخص تبادل معه أطراف الحديث بعد أن عرف أنه المدير الجديد، وعندما سأله المدير عن سبب عدم وجود الكهرباء قال له الشخص بنبرة حزينة:

- «طالما الحل والربط بيد مرجان مسلم ضرغام فإن حياتنا لن يدخلها الضوء أبداً. عن أي كهرباء تتحدث يا أستاذ ومرجان مسلم ضرغام جاثم على صدورنا؟».

ثم اختفى الرجل في الظلام وكأنما لكيلا يحفظ المدير

صورته، بينما تابع المدير تجواله. ومن باب الفضول وجَّه السؤال نفسه عن عدم وجود الكهرباء لشخص آخر التقاه، فردَّ هذا بصوت قوي مفعم بالثقة:

- «وما حاجتنا إلى الكهرباء في وجود المختار مرجان مسلم ضرغام، الذي ينير سناه لنا الطريق وحول لنا الظلام إلى نور؟».

وأطنب الرجل في الحديث عن نور مرجان مسلم ضرغام حتى قاطعه المدير مستأذناً قبل أن يكمل مديحه للمختار، وسمع صوت زفيره وهو يتنفَّس الصعداء خلف ظهره.

تساءل المدير مرة عن سبب انتصار الهكسوس على المصريين في معركة ابتكرها من خياله بتاريخ حدَّده قبل ألفي عام على وجود المختار مرجان مسلم ضرغام، فأجاب الذين يكرهون مرجان بشكل آلي بعد أن تلفَّتوا حولهم طبعاً:

- «بسبب خيانة مرجان مسلم ضرغام للمصريين، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر».

بينما أجاب المحبون دون التلفت حول أنفسهم:

- «لأن المصريين لم يلتزموا نصائح مرجان مسلم ضرغام».

وهكذا كان مرجان مسلم ضرغام محور أي حديث يفتحه المدير مع الناس، أشخاص يمدحونه إلى درجة التأليه وأشخاص يمقتونه إلى درجة الحقد. ومن باب الدعابة طرح مرة لغزاً يستخدم عادة للتندُّر، فقال:

- «صحن اللبن في الطاقة ليس هو بجمل وليس هو بناقة فما هو؟».

فردَّ الحاضرون جميعاً:

* «المحمض النتن أبو صنَّة مرجان مسلم ضرغام».

وفي الجمع الآخر أجاب الجميع دون تردد:

- «إنه مرجان مسلم ضرغام الذي يشرب مع الماء العكر».

وأخير قرر المدير التعرف إلى مرجان مسلم ضرغام، فظل يسير، كما نصحه العجوز الأول، حتى نبحت الكلاب، فوجد بوابة معدنية عشش العنكبوت على زواياها وفتحاتها، كتب عليها بطلاء تقشر حتى بات من الصعب قراءته (المختار مرجان مسلم ضرغام)، وعندما قرع البوابة استعر النباح من الداخل بشكل مرعب، ولكنه ظل يقرع حتى جاءه صوت من الداخل لعجوز لم ير وجهها ولكنه تخيلها على شكل ساحرة شريرة، سألته عن مبتغاه فأخبرها أنه يريد مقابلة مرجان مسلم ضرغام، فأكدت له المرأة أن مرجان مسلم ضرغام قد مات منذ عشرين عاماً، ولم يعد له وجود. فعاد أدراجه إلى المدرسة مستغرباً.

وعندما قال للأستاذ محمود إن مرجان مسلم ضرغام قد مات، صرخ الأستاذ محمود في وجهه بغضب ممزوج بنشيج:

- «مرجان مسلم ضرغام لا يموت، مرجان مسلم ضرغام أقوى من الموت».

وخرج غاضباً من الغرفة قبل أن يتفوه المدير بحرف جديد، وعندما واجه المدير الأستاذ يوسف بالحقيقة نفسها حول موت مرجان مسلم ضرغام، تلفت الأستاذ يوسف حوله كالعادة وهمس للمدير:

- «خديعة وكمين لكي يقع به الأغبياء».

لم يتمكن المدير من قراءة ما بين السطور، وطلب مزيداً من الشرح. فشرح له الأستاذ يوسف برحابة صدر:

- «مرجان مسلم ضرغام لم يمت... لقد أشاع هذا الخبر لكي يعرف أعداءه من أنصاره، ولكن هيهات، فلن يتمكن من ذلك أبداً، فخبثه لن يتفوق على ذكاء شعبنا، ولو بقي مئة عام يتصنع الموت سنبقى مئة عام نتصنَّع حبه... ولن نجعله يتمكن من اكتشاف أعدائه أبداً. ليس في قلبه رحمة يا رجل!».

الحمار الثامن

أمضى أبو كرم زهرة حياته سائق دبابة في الجيش، ولأن عائلته كانت تتنقل معه حيث يؤدي خدمته فإن زياراته إلى القرية كانت قليلة جداً، ويمكن القول إنه لم يكن يحضر إلا في المناسبات التي لا يستطيع التخلُّف عنها، كالأعراس والجنازات. وكان دائما يحضر بزيه العسكري ويشعر في نظرات الجميع الموجهة إليه بشيء من الهيبة التي يضفيها عليه ذلك الزي، وهذا ما كان يجعله يشعر بشيء من التميز على سكان القرية أيضاً. وبلغت تلك الهيبة أقصى درجاتها عندما حصل أبو كرم على رتبة المساعد، حيث علقت له على كتفيه لوحتان خضراوان أصبح يرى العالم من فوقهما وكأنه يقف على شرفة مرتفعة.

ولكن بعد خروجه إلى التقاعد وعودته للعيش في قريته بدأت

تلك الهيبة تتلاشى بشكل متسارع، لدرجة أنها، وفي غضون سنة، لم يعد لها وجود، فقد اكتشف أبو كرم أنه براتبه التقاعدي، أفقر سكان القرية على الإطلاق، ففي كل بيت يدخله كانت تواجهه السجادات الفاخرة المفروشة على الأرض ببذخ لم يصادف مثله، وفي كل بيت كانت الأجهزة الكهربائية متوفرة بكثرة، فلا يخلو بيت من جهاز تلفزيون بشاشة كبيرة، وجهاز فيديو ودي في دي، وآلة تسجيل حديثة تستقبل أشرطة كاسيت وأقراص سي دي، عداك عن الغسَّالات الأوتوماتيكية والبرَّادات الشاهقة والمكيِّفات وكل ما يخطر في بالك من وسائل الرفاهية.

هذه الفوارق الطبقية بينه وبين الباقين ولَّدت في نفسه مع الزمن شعوراً بالحزن والحسد، ثم بالازدراء تجاه نفسه، وبالخجل من زوجته التي كان يعتقد أن جميع نساء القرية يحسدنها لأنها زوجته. أمَّا الأولاد، فقد حمد الله وشكره لأنهم بقوا في البيت الذي كان يستأجره في حي الأكراد على سفح جبل قاسيون، منهم من يعمل ومنهم من يدرس، ومنهم من يكش الذباب كما كان يحلو له التعبير للدلالة على البطالة. وأكثر سؤال كان يحيره، هو من أين يأتي هؤلاء بكل هذه الأموال ليبذخوا كل هذا البذخ؟ فلديه من الأراضي مثل ما لديهم، ويبيع من المحصول مثل الذي يبيعونه، ولكنه بخلافهم لا يتبقى معه قرش واحد بعد العشر الأوائل من كل شهر. وعندما شرح صدره لزوجته، عثرت هذه على السبب فوراً

متهمة إياه بالإسراف. ولكنه استبعد كليا أن يكون إسرافه سبب فقره، فالجميع في القرية ينفقون من الأموال في كل شهر ما يعادل مجموع راتبه التقاعدي في العام كله. وعندها عثرت له زوجته على سبب آخر لفقره:

- «لا بد أن الله يرزقهم ولا يرزقك».

* «ولماذا يفعل ذلك؟ في حياتي كلها لم أسرق ولم أزنِ ولم أتعاطَ أي نوع ممَّا حرمه الله، حتى النميمة لم تجد لها طريقاً إلى لساني».

ولأن كلمات زوجته بعثت في نفسه الحنق، فقد قال بصوت غاضب بعد أن صمت قليلاً:

«دوناً عن كل سكان القرية، أنا الوحيد الذي يمكن أن ينتمي إلى عباد الله الصالحين، فلماذا لا يرزقني؟».

لم تعلق هي عندما رأت الغضب قد تسلل إلى ثنايا صوته. أما هو فقد خرج من المنزل شاعراً بالإهانة مما قالته زوجته، حيث وجد فيه نوعاً من التشكيك بسلوكه وأخلاقه، ولمس سوء النية المبيت لديها.

ابن عمه موفق وضَّح له الصورة عندما صارحه أبو كرم متسائلاً عن السر، فقال له:

- «التهريب يا ابن عمي... التهريب، من لا يعمل في التهريب هنا يموت من الجوع».

صفن أبو كرم وحسدهم في داخله على شجاعتهم، ثم تساءل:

* «والجمارك؟».

- «الجمارك؟ عندما تقبض الجمارك على الحمير فلتحكم عليها بالسجن المؤبَّد، أو حتى بالإعدام إذا أرادت. سنعوض ما فقدناه في التهريبة التالية».

* «وما شأن الحمير في ذلك؟».

وشرح له موفق الطريقة، موضِّحاً أن المهرِّبين يحمِّلون قوافل الحمير بالمهرَّبات ويتركونها عند الحدود، وهي بدورها تقوم بإيصال البضاعة. أما نحن فنعبر الحدود ذهاباً وإياباً عند النقطة فنعود لنجد الحمير في معظم الأحيان وقد سبقتنا إلى بيوتنا.

ذهل أبو كرم للسهولة التي يتم فيها الموضوع، وقرر أن يخوض غماره طالما أن المسؤولية كاملة تقع على الحمير. ولكن المشكلة الوحيدة التي وقفت عائقاً في طريقه هي رأس المال الذي يفترض أن يوفره لكي يبدأ بنشاطه في هذا المجال. وفي صباح اليوم التالي ركب الباص المتوجه إلى المدينة وبدأ بالبحث عن زملائه الذين تقاعد معهم.

عثر أولاً على زميل له وجد عملاً كسائق تاكسي في المدينة، ودار بينهما حديث عن صعوبة الحياة بعد الخروج على التقاعد واضطرارهم إلى العمل في مهن منها في بعض الأحيان ما هو وضيع، والذل الذي يتعرضون له بينما هم يجب أن يمضوا الوقت

في الراحة والاستجمام بعد رحلتهم الطويلة مع الدبابات الفولاذية الثقيلة وجنازيرها الحديدية الضخمة. وفي نهاية المطاف شرح له قصة الحمير وحدَّثه عن النتائج المادية المذهلة لهذا العمل، ولم يكد أبو كرم ينهي كلامه حتى كان زميله السائق قد أقلع باتجاه البيت لكي يعطيه قرشه الأبيض الذي ادخره لليوم الأسود، وكان حجمه خمسة عشر ألف ليرة. حينئذ انتقل أبو كرم إلى زميل آخر شرح له أيضاً قصَّة الحمير، وحصل منه على مبلغ لا بأس به، وإن لم يكن بحجم المبلغ السابق. وحتى المساء كان أبو كرم قد اجتمع مع نحو عشرة من رفاق السلاح وحدثهم عن الحمير، وتمكَّن من جمع مبلغ يقدر بمئة ألف ليرة، وهو مبلغ مناسب جداً لبداية العمل في المهنة.

ولم ينتظر أبو كرم طويلاً، ففي صباح اليوم التالي كان عند النقطة الحدودية بين لبنان وسوريا، وتوجَّه فوراً إلى منطقة شبعا القريبة من قريته عند الحدود. وفي طريقه اشترى الحمير من سوق للطرش سأل عنه ودلُّوه عليه هناك، وكان عددها سبعة حمير. وفي شبعا التقى أبو كرم بالرجل الذي دله عليه ابن عمه موفق، وهذا بدوره أمَّن له البضاعة فوراً، فقام بتحميل ثلاثة من الحمير بالحديد، وحمَّل ثلاثة أخرى بكراتين الدخان من ستٍّ ماركات أجنبية مختلفة، أما الحمار السابع فحمَّله بأجهزة كهربائية مختلفة. ثم صعد معه الرجل الذي من شبعا إلى رأس تلة هناك وأشار له إلى المنطقة التي يجب عليه فيها أن يطلق الحمير، وهذا ما فعله

أبو كرم، حيث قاد الحمير إلى هناك ثم أطلقها وتوجَّه بدوره إلى النقطة الحدودية لكي يعود إلى القرية.

عند عودته، وقبل النقطة الحدودية بنحو مئة متر، حيث انتشرت الدكاكين التي تبيع العابرين مختلف أنواع البضائع، مد أبو كرم يده إلى جيب شرواله وأخرج النقود التي كانت هناك، وعدَّها فاكتشف أن بإمكانه أن يستفيد بعض الشيء، واشترى ثلاثة كروزات دخان دسَّها في أسفل شرواله ودخل إلى المركز الحدودي اللبناني ووقَّع الأوراق المطلوبة، ثم توجه إلى المركز الحدودي السوري. ولكن في الطريق مال أحد الكروزات الثلاثة واستقرت زاويته في نقطة ميتة من "محاشم" أبي كرم، إلا أن الوقت كان قد فات لإجراء أي تعديلات، فإن مد يده إلى أسفل الشروال ربما يثير الشكوك لدى رجال الجمارك الذين تعج بهم نقطة الحدود، عدا عن أن سلوكه هذا غير لائق بحضور أشخاص غرباء بينهم الكثير من النساء، والذين لن يفسروا ما تفعله يده في أسفل الشروال إلا تفسيراً واحداً لا بد من أنه سيثير مشاعر الآخرين ويسبِّب له توبيخاً غير لائق به في أحسن الأحوال. ولذلك فقد أخذ أبو كرم يسير وينفض رجله اليمنى جانباً بشكل حاد، آملاً أن تفلت زاوية كروز الدخان الحادة من تلك النقطة التي تكاد تنغرز فيها، ومع أن ذلك لم يجدِ نفعاً، بل كان يؤدي بعض الأحيان إلى ألم حاد في تلك المنطقة، إلا أن مشية أبي كرم لم تكن السبب الذي أثار شكوك

رجل الجمارك الذي مرَّ أمام عينيه على هذه النقطة الحدودية من هم أكثر من أبي كرم غرابة. ما أثار الشكوك وجعله يطلب من أبي كرم أن يقف جانباً، هو شكل المكعب الذي اتخذه أسفل شروال أبي كرم، وبطبيعة الحال فقد اقتيد أبو كرم إلى الداخل وتم تفتيشه وعثر على الكروزات الثلاثة هناك وتم توقيفه للبت في أمره، ومن حسن حظه فقد أشفق عليه المناوب وتركه في حال سبيله بعد أن صادر الكروزات الثلاثة.

وصل أبو كرم إلى بيته قبيل الفجر بقليل، وأول ما فعله بعد أن أيقظ زوجته هو السؤال عن الحمير، هل وصلت أم لم تصل بعد. وعندما أخبرته زوجته بأن الحمير لم تصل بعد، شعر بقلق لم يشعر به عند توقيفه في النقطة الحدودية، ومضى إلى الخارج، صعد إلى السطح وبدأ يرصد المنطقة المحيطة بالمكان لعله يلمح حماراً هنا أو هناك، ولكن السكون كان يخيِّم على كل شيء.

وعندما أشرقت الشمس، رصد أبو كرم حركة وأصواتاً في منزل ابن عمه موفق، فهُرع إليه يسأله عن سبب عدم وصول الحمير حتى هذه اللحظة كونه خبيراً في هذا الأمر. أما موفق فلم يكن لديه سوى تفسير وحيد:

- «لا بد من أن دورية من الجمارك قد صادفت الحمير فاستولت عليها».

ووعده بالسؤال في مركز الجمارك عن ذلك. وبعد الظهر

أخبره أن الجمارك لم تلقِ القبض على أي حمار، وطلب من أبي كرم أن يروي له التفاصيل لعله يستطيع أن يخمِّن سبب عدم وصول الحمير.

وعند وصول أبي كرم إلى النقطة المتعلقة بشراء الحمير من سوق للدواب قرب شبعا، لم يتمالك موفق نفسه وانفجر بضحك هستيري، شرح خلاله لابن عمه أن الحمير تعود إلى بيوت أصحابها. وبعد أن كادت تتفتق خاصرتاه من الضحك انهمرت دموعه، وهكذا فعل بقية سكان القرية الذين علموا بالموضوع، الجميع كانوا يضحكون، ما عدا شخص واحد كان يحبس دمعه وعويله عنوة لكي يحافظ على بقايا هيبة كاد ينساها، وكان يفكر في طريقة للحصول على قرض يعيد منه ما استدانه من زملائه المتقاعدين، وتجاهل التسمية التي أطلقها عليه البعض، "الحمار الثامن"، لقناعته بأن فيها شيئاً من الصحة.

طابق ثاني

عندما بنى راشد بيته المكون من غرفتين ومطبخ، لم يكن يبنيه فقط من أجل إيواء أسرته التي كانت ما تزال صغيرة بمقاييس القرية في ذلك الوقت، حيث لا يشكل أفرادها أكثر من سبعة أشخاص، هو وزوجته سميحة وخمسة أبناء سادسهم في بطن سميحة المنفوخ بشدة، مما يوحي بأن توأماً يسكن فيه على الأغلب. راشد كان يفكّر بشكل استراتيجي، فهؤلاء جميعاً سيكبرون ويتزوجون وينجبون، ولا بدَّ لهم من فتح بيوت. ولهذا ترك راشد الحديد بارزاً من الأعمدة ومن أطراف السطح، والغاية من ذلك هو توسيع البيت لاحقاً، أفقياً وعمودياً، عبر بناء غرف جديدة تضاف إلى الغرفتين الحاليتين، وبناء طابق ثانٍ دون الاضطرار إلى تنقير السطح من أجل الكشف عن الحديد القديم وشبك الحديد الجديد به لمتابعة أعمال البناء.

- «هكذا يأتي المعمرجي الجديد فيجد حديد الأعمدة جاهزاً، فيشبك الوصلات دون تنقير السطح».

أثنى الجميع على تفكيره الاستراتيجي، وباركوا له بخلفه الذي يبشر بأنه سيكون كثيراً.

بعد بناء البيت عاش راشد وأسرته لمدة تقارب العام لا يعكر صفو حياته شيء. صحيح أن السطح في الشتاء، بسبب بعض عيوب البناء، كان يرشح من بعض الأماكن ويدلف من أماكن أخرى، لكن ذلك لم يكن مشكلة بالنسبة إلى راشد، فقد ذهب إلى ورشة تعبيد الطرق التي كانت تعمل قريباً من بيته وحصل منهم على دلوين من القار سكبهما على المناطق التي تدلف وترشح، وتخلَّص من المشكلة. وفي الربيع وأوائل الصيف استرد البيت عافيته وتخلَّص من الرطوبة التي خلَّفها الرشح والدلف، وجاءت أيام الحصاد والبيت في أحسن حال، وفي أثناء الحصاد، وبينما كان راشد منكبَّاً على جز أعناق السنابل، شاهد ابنه الأوسط قادماً من بعيد وكأنه يسبح فوق أمواج السنابل التي كانت تخفي حركة رجليه. فوقف وشعر بقلق في داخله، ولم يكذبه قلبه الذي ازداد عدد خفقاته، فقبل أن يصل إليه ابنه نقل إليه الخبر المفجع:

- «يا با، أمي وهي تنزل عن السطح علق ثوبها بالحديدات وسقطت من فوقه».

لم يفهم راشد إن كانت سميحة لا تزال على قيد الحياة

بعد سقوطها أم لا، فهو لم يترك الحديد فقط، وإنما ترك خلف المنزل حيث نصب السلم كومةً من الحجارة كان يجمعها كلَّما تسنى له ذلك لكي يقوم بتكسيرها وتحويلها إلى حصى من أجل استخدامها في بناء الطابق الثاني، فيوفر بعض التكاليف. وكلها كانت ذات حروف حادة كفيلة بشق الرأس نصفين إن سقط فوق حافتها، ولذلك فقد سأل ابنه قلقاً:

* «وكيف هي؟».

ولكي يوضح أكثر تابع:

* «يعني طيبة؟».

- «كانت تتنفس عندما أدخلناها إلى المنزل».

قال الولد باختصار مثيراً قلق راشد أكثر، فمن كلام الولد فهم راشد أن سميحة فاقدة للوعي، وهو في الحقيقة لم يكن يخاف على سميحة، فعينه كانت قد بدأت تسترق النظرات إلى عدة صبايا، وكان يفكِّر جدِّياً في إضافة إحداهن، وربما إذا رزقه الله بثروة من غامض العلم، سيضيفهن كلهن إلى خاناته الأربع في دفتر العائلة. ولكن القرش كان قد ناصب العداء لراشد مانعاً إياه من تحقيق أحلامه، لذلك لم يكن راشد قلقاً على سميحة، وإنما على التوأم الذي أطلق على أحدهما اسم منير وعلى الثاني اسم جمال، في حال كانا صبيين. وعلى الأولى سناء والثانية سوسن في حال كانتا بنتين، وإذا كانا ولدا وبنتاً فهما جمال وسوسن. من

سمات راشد أنه عندما يفكر يضع جميع الاحتمالات. رمى راشد غمر السنابل الذي في يده وحث الخطى إلى منزله.

في المنزل اكتشف راشد ان ابنه يمتلك موهبة تبهير الأخبار، فسميحة بعد أن سقطت نهضت بمفردها ودخلت تعرج إلى المنزل، وجلست دون مساعدة أحد، لا بل تابعت تجهيز الطبخة لكي ترسلها إلى الحقل لكي يتناول راشد غداءه. ولم تشعر بالألم الشديد إلا بعد مرور بعض الوقت حيث تم استدعاء المجبر.

لم يعجب مشهد المجبر الذي يمسك بكاحل سميحة ويتحسسه راشد، وتمنى في قلبه ألا يكون هناك كسور أخرى اعلى من الكاحل. ولسوء حظه فقد كان هناك كسر أعلى بقليل تعذب راشد بسببه وبقيت العلاقة متوترة لأنها كشفت رجلها لعيني المجبر الذي كان قد تجاوز السبعين. وإدراكا منه لحساسية الموقف، أكد لراشد أن سميحة مثل بنته، وكان راشد كلما تذكر مشهد المجبر وهو يتحسس بطة رجلها يصيح بها:

- «أي شيطان دفعك إلى الصعود إلى السطح؟ ما الذي كنت تفعلينه هناك؟».

فتعود هي وتكرر له انها كانت تنشف القمح المسلوق الذي سيحولونه إلى برغل. ومع ذلك كان يكرر السؤال نفسه ويسمع الجواب نفسه، حتى أنه كان أحياناً يفيق من نومه ويسأل، ولكن وبما أن كل الجراح تندمل فهذا الجرح قد اندمل أيضاً.

مرت عدة أعوام أخرى، وكان هذه المرة خلف بغله يمسك بمقبض المحراث عندما شاهد ابنه الذي كبر قليلاً يركض من بعيد متقافزاً فوق الأثلام، ويقول له قبل أن يصل إليه:

- «يا با، أمي علق ثوبها بالحديد».

* «يقطع عمرها أمك!».

قال راشد وهو يترك مقبض المحراث ويركض باتجاه البيت، ثم أضاف:

* «ألبسهاميني جوب يعني مشان ما تعلق أواعيها بالحديد؟».

لم يكمل المجبر الذي كان يضمِّد فخذ سميحة هذه المرة التجبير، فقد أفاق في المشفى الوطني وحوله مجموعة من أهله، وتساءل فقط:

- «شو القصة؟».

وفي غرفة ليست بعيدة عنه كانت سميحة مجبرة الساق، ولكن بالجبس هذه المرة، فقد أسعفوها هي الأخرى إلى المشفى نفسه وجبَّروا ساقها التي كسرت. وأما راشد فقد أسعفوه إلى المخفر حيث كان ينتظر انتهاء التحقيقات في محاولة قتل المجبر.

ولكن من حسن حظ راشد وأمثاله أن الأعراف القروية لا تعير اهتماماً للمصطلحات القانونية على شاكلة "الشروع بالقتل" التي تم تصنيف جريمة راشد تحتها، حيث تم تحت إشراف وجهاء القرية عقد صلح بين المجبر وراشد، وقامت الشرطة بتمزيق

محضر التحقيق وعادت الأمور كما لو أن شيئا لم يكن. فقط سميحة لم تعرف إلى أين تذهب بعد خروجها من المشفى، فراشد لم يزرها في المشفى ولا مرة بعد إطلاق سراحه. كانت تخشى العودة إلى البيت فتجده وقد "رمى الطلاق"، فتتعرض لجرح في روحها لا يندمل، وتخشى أن تذهب إلى بيت أهلها فيغضب منها إن لم يكن قد "رمى الطلاق". أمر حيرها كثيراً، ولكن سرعان ما انقشع ضبابه عندما شاهدت راشد في السيارة التي جاءت لنقلها إلى البيت. في البيت نبهها راشد بنبرة يبدو التهديد فيها واضحاً مثل عين الشمس:

- «اذا تعثرت بالحديد مرة أخرى فلن يكون هناك خير أبداً. أليس لك عينان تنظران ما الذي أمامك؟».

* «عيناي لا تريان في كل الجهات. حديدك يطوقنا من كل الجهات».

- «اخرسي».

قالها راشد بالمختصر المفيد معتبراً أنه ليس من حقها الرد بعد ما فعلته، وهي خرست.

في المرة الثالثة عندما جاء الولد راكضاً، وكان ذلك بعد أشهر، لم يهرع راشد إلى البيت مسرعاً، واكتفى بالقول عندما أعلمه الولد أن أمه سقطت:

- «حدها ستين جهنم».

وجلس تحت شجرة وأشعل سيجارة حمرا طويلة، ثم أشعل بعدها أخرى وأخرى حتى بلغ عددها خمس سيجارات، كانت تلك فترة كافية لكي يكون المجبر العجوز قد أنهى عمله فلا يرى راشد ما يجري ولا "يفور دمه".

عندما شاهد راشد الضماد على يد سميحة شعر بارتياح كبير، وسمح لنفسه بمواساة سميحة التي تذمرت ودمعة توشك على أن تسلت من طرف عينها:

- «متى تقص هذا الحديد يا رجل؟».

* «صه! ولا كلمة. لا أريد أن أسمع شيئاً بخصوص الحديد. لا أريد تنقير السطح عندما نبدأ ببناء الطابق الثاني».

مضت السنين وسقط أشخاص آخرون وتزوج ابنه الأكبر وعاش في الغرفة الثانية، ثم تزوج الثاني واستأجر غرفة في بيت قريب. وأصبح لدى راشد أحفاد كثر، وظل مصمِّماً على ترك الحديد الذي غطاه الصدأ نافراً من الأعمدة القديمة ومن أطراف السطح. وعندما أصابته نوبة قلبية كان موقناً أنها ستودي بحياته، كانت وصيته الأخيرة في سيارة الإسعاف لأبنائه الذين رافقوه:

- «إياكم تقصوا الحديد يا ابني... لكيلا تنقروا السطح عندما تبدأون ببناء الطابق الثاني».

وقد احترم أبناؤه الوصية.

المايسترو

أغلقت العاصمة أبوابها أمام المايسترو منذ أعوام كثيرة. تمكن هناك من اختراق الكازينوهات والعزف فيها، وعزف كذلك في الأعراس وفي السهرات، ولكنه لم يتمكن من اختراق حصون الثقافة التي تعذر عليه اقتحامها، فلم يستطع تحقيق حلمه بالوقوف أمام النوتة فوق المنبر والإشارة بعصاه لفيلق من الموسيقيين اجتمع أمامه على الخشبة.

عاد إلى بلدته وافتتح دكاناً صغيراً استسلم فيه لقدره المحتوم، ونسي الموسيقى تماماً. ولكن في يوم الخميس الواقع في العاشر من تموز جاءه أبو طارق الذي يعمل في البلدية وبعث الحياة في حلمه الذي كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- «اليوم يومك يا "سنباطي"».

هكذا كان يسميه أبو طارق، الذي أخبره والفرح يعلو وجهه، أن وفداً رفيع المستوى من العاصمة سيزور مركز الناحية، وأن البلدية تكلِّفه بافتتاح الحفل الذي ستنظمه، وأن الحفل سينقل في بث حي ومباشر على جميع القنوات. ولم ينسَ أبو طارق الحديث عن الدور الحاسم الذي لعبه في دعم ترشيح المايسترو لهذه المهمة.

لم يتسع قلب المايسترو للفرح الذي دب في أوصاله، فأصيب بضيق في التنفس وشعر أن رجفة تسري في مفاصله وأن روحه توشك أن تفر من أذنيه، ولكنه تمالك أعصابه وأرغم نفسه أن تبقى على قيد الحياة، فقط حتى يحقق حلمه على الأقل.

أغلق الدكان وتوجه إلى البيت، أخرج بذلته السوداء الخاصة بقيادة الأوركسترا وعصاه، ونبش نوتاته من بين الكتب المكدسة على الرفوف، وأخذ ينتقي منها ما يلائم الحفل المنتظر.

في الصباح، كان أعضاء الفرقة الموسيقية الذين جمعهم أبو طارق من مركز الناحية والبلدات المحيطة، يتحلقون حول المايسترو على الخشبة بسلاح الميدان الموسيقي الكامل، ورغم أن عدداً كبيراً من الآلات لم تكن موجودة في تلك الفرقة، إلا أن المايسترو قرر أن يخوض التجربة: (بغانيني عزف على الكمان بدون قوس)، فكَّر المايسترو في نفسه ورفع عصاه وأعطى إشارة البدء.

الصعوبة كانت كبيرة في البداية، فعازف الإيقاع لم يكن يعرف

النوتة، ولكن المايسترو استطاع أن يروضه عبر جلسات منفردة أقنعه خلالها أيضاً أن يعرِّف عن نفسه بأنه ضابط إيقاع وليس دقِّيق دربكة. أما عازف العود، وبسبب عجزه عن الانسجام مع الأوركسترا فقد أراد أن يعتذر عن المشاركة بحجة أنه مبدع ولا يقبل أن يأمره أحد. ولكن أبو طارق طبع قبلة على ذقنه وقال:

- «شو بنا فريد؟ كرمال أبو طارق هالمرة».

عاد عازف العود إكراماً لأبي طارق، وحصلت مشاكل كثيرة مع كثيرين غيره. ولكن بصبر المايسترو و"مونة" أبو طارق تم التخلص من هذه المشاكل وتذليل العقبات كافة. وبعد شهر من التدريب المتواصل كانت أمام المايسترو مجموعة يمكن، بشكل ما، أن نسميها أوركسترا.

في اليوم الموعود جاء الوفد من العاصمة، وعند وصوله إلى باب المركز الثقافي كان المايسترو في مكتب المدير يتابع اتصالاته بكل أقاربه ومعارفه الذين يملكون أجهزة فيديو لكي يولفوا التلفزيون على القناة الأولى والفضائية ويسجلوا له الحفل. دخل أبو طارق ممتعضاً وشدَّه من ذراعه قائلاً:

- «وينك يا أخي؟ الوفد صار عالباب».

ثم أخذ السماعة من يد المايسترو وأقفل الخط قبل أن يكمل حديثه، ركض المايسترو عبر الكواليس وصعد إلى الخشبة وخلفه أبو طارق الذي أوصاه:

- «بس يبين عالباب بتعطي الإيعاز. بدي كل شي منظم عالتكة».

ظهر الوفد بباب القاعة، فحرك المايسترو عصاه في الهواء وانطلقت السمفونية. شعر المايسترو أن الأرض تتنفس وأن قلبها الذي يخفق بشدة يقع تماما تحت المنبر الذي يقف عليه، وكان يحس أن علامات المدرج الموسيقي التي تحلق في فضاء المسرح هي الأوكسجين الذي كانت تستنشقه الأرض فتنبعث تحت سطحها الحياة. وعندما أمسك أبو طارق بذراعه وشده إلى الخلف ظن أن ذلك واحد من الانفعالات التي كان يشعر بها، ولكن صوت أبي طارق جاءه من الخلف:

- «لحظة... وين وين وين؟ على مهلك».

جعله ذلك يستفيق من تخيلاته، فالتفت المايسترو نحوه وتوقفت الموسيقى، وكان الوفد لا يزال يوزع التحيات لجماهير المسرح التي وقفت على جانبي الممر، فقال له أبو طارق مشيراً إلى وسط الصف الأول:

- «بتعرف إنه سيادته رح يقعد هون؟».

* «بعرف».

- «وطالما بتعرف ليش أخذت هالوضعية؟».

* «أي وضعية؟».

- «ليش دايرله ظهرك؟ هيك منستقبل الضيوف نحنا؟».

استغرب المايسترو هذه الملاحظة من أبي طارق، وحاول أن يشرح له:

* «يا أبو طارق... بكل العالم المايسترو بيكون وجهه للأوركسترا وظهره للجمهور، عادي».

نفض أبو طارق بقفا يده في الهواء بغضب:

- «شو بدنا بالعالم نحنا؟ مو كل شي بيوردولنا اياه بدنا ناخذه متل ما هوه. العلم والتكنولوجيا على راسي، بس عاداتنا وتقاليدنا لأ. ما بيصير. هي إسمها غزو ثقافي».

انفعل المايسترو قليلاً، ولكنه كتم انفعاله:

* «كيف يرى الموسيقيون إشاراتي إن أدرت لهم ظهري؟ ما بتزبط يا أبو طارق».

- «بتزبط. صرلهن شهر عم يتمرنوا. حفظوها بصم، ليسوا حميراً».

أفلتت انفعالات المايسترو من عقالها وقال:

* «ما بيصير يا أبو طارق».

لم يستمع أبو طارق إلى كلام المايسترو وقاطعه قائلاً:

- «لا تعملّي بيصير وما بيصير. قسماً بالله العظيم يا بتدير وجهك للوفد يا بقطع الكهربا وبلغيلك نمرتك كلها».

ثم حمل النوتة ووضعها في الجهة الأخرى وقال له:

- «بلِّش، الجماعة قعدوا».

وانصرف مبتعداً.

رضخ المايسترو للأمر الواقع، وأخذ يعطي إشاراته باتجاه الجمهور. فانحنى رئيس الوفد باتجاه مدير الناحية وهمس سائلاً:

- «شو، فقرة كوميدية؟».

* «لأ. سيمفونية».

- «لكان ليش هذا داير ظهره للفرقة؟».

أشار مدير الناحية لأبي طارق فركض باتجاهه حانياً ظهره لكيلا تلتقطه العدسات، وقرفص أمام مدير الناحية:

- «خير سيدي؟».

* «ما لقيتوا غير هالجحش تجيبوه يمسك الأوركسترا؟ طلاع قله يستعجل شوي بالسيمفونية تبعه ويفرقنا».

صعد أبو طارق إلى المسرح بسرعة وتوجه إلى المايسترو وهمس في أذنه:

- «خف رجلك شوي وختوم نمرتك. سودت وجهنا الله يسود وجهك».

تعفيش
أو (جريمة شرف)

في الواحدة بعد منتصف الليل، وربما أكثر بقليل، كانت نافذة ليلى لا يزال ينبعث منها ضوء صادر عن شمعة تتراقص شعلتها المتهالكة خلف الستائر الشفافة بعض الشيء. وكان كيوان قد ختم قصيدته التي كتبها في ليلى على ضوء شمعة كانت تلفظ آخر أنفاسها فوق طاولته، ولشدة إعجابه بما كتبه لم يستطع الانتظار حتى الصباح لكي يقرأ لها قصيدته، فقرر أن يتسلل إلى غرفتها ويقرأ لها القصيدة طازجة لم تبرد عواطفها بعد. ومن باب إجراءات الأمان، توجه إلى تحت نافذة والدها وكمُن قليلاً ليتأكد إن كان قد غط في النوم أم لا يزال ساهراً. وعندما سمع الشخير المألوف من الداخل اطمأن إلى أن عدوه قد أرخى للنوم سدوله،

وإمعاناً في الاطمئنان سعل تحت النافذة، وعندما لم يتغير دوزان الشخير لم يعد هناك ما يخيفه، فذهب ونقر على نافذة ليلى التي فتحت له، فقفز مثل الغزال كما يقول هو، ومثل القرد كما تقول ليلى، وأصبح داخل الغرفة.

لم يكد كيوان يقرأ لها المقطع الأول حتى علت جلبة كبيرة وسمعت ضربات على الباب الخارجي من الواضح أنها تحاول خلعه. توجه كيوان باتجاه النافذة لكي يهرب، ولكنه وجد تحت النافذة سيارة بيك آب فيها عدد من المسلحين، بينما خرجت ليلى مسرعة إلى أرض الدار لكي توقظ والدها الذي وجدته مستيقظاً يسأل عدداً من المسلحين عما يريدون، بينما كانوا بدورهم يدفعونه بعيداً عنهم ويخرجون على وجه السرعة بما غلا سعره وخف أو ثقل وزنه، لم يكن لديهم في الأوزان فرق. وعندما قال لهم محاولاً كتم عبراته:

- «يا شباب أنتو هيك تركتونا عالأرض».

رد أحدهم:

* «أليس ذلك أفضل من أن نتركك تحتها؟!».

وقهقه. فاقتنع والد ليلى برأيه وصمت.

وبينما كانت ليلى مع عائلتها تُحصي الخسائر، حضرت سناء لتواسيهم، ولكي تسأل في الوقت نفسه عما حل بأخيها كيوان الذي كان قد أخبرها بأنه ذاهب ليقرأ قصيدته لليلى.

استغربت ليلى سؤال سناء وأخبرتها بأنها لم تعد تذكر. كل ما تعرفه أن كيوان اختفى وفقط، وأنها كانت تظنه قد عاد إلى البيت. مما جعل القلق يتسرب إلى نفس سناء وبقوة.

أما على الضفة المقابلة، فقد كانت غرفة نوم ليلى التي تم تعفيشها من نصيب وضَّاح الذي ساعده رفاق التعفيش بنقل محتوياتها المؤلفة من سرير وخزانة ومرآة للمكياج إلى الغرفة الفارغة، وقام وضَّاح بتقبيل زوجته هيفاء قبلة سريعة والظفر يملأ نفسه، وربَّت على الخزانة وقال:

- «أبنوس، كما كنت تتمنين تماماً».

ثم أشار إلى صورة راغب علامة الملصقة على باب الخزانة وعلق:

- «حدا بيلزق صور عالخزانة؟».

ووعدها بأن ينزع الصورة دون أن يخدش الخشب عندما يعود، حيث كان عليه أن يساعد رفاقه في نقل حصصهم إلى الأماكن المطلوبة. أما هيفاء فلم تكن سعيدة جداً بهذا العفش، فقد كانت تحلم أن يشتري لها زوجها أثاثاً جديداً لا أثاثاً مستعملاً ومسروقاً، حتى أنها بعد انصراف وضَّاح لم تدخل إلى الغرفة أبداً، وجلست في الصالون تتابع لعبة ما كانت تلعبها على الموبايل، وعندما شعرت بالنعاس دخلت إلى الغرفة وكانت على وشك أن تغفو حين عاد وضاح عند الفجر بعد أن انتهى من مساعدة

رفاقه. وعندما أراد استعراض الغنائم، شد باب الخزانة ليرى ما تم تعفيشه في داخلها، ولكنه فشل في فتحه، وكان واضحاً أنه ليس مقفلاً، وأن شيئاً ما فقط يعيق فتحه من الداخل. فقام بشده وإذ بكيوان يقف داخل الخزانة بين الثياب التي ما زال بعضها معلقاً وسقط بعضها الآخر، فنظر وضَّاح إلى هيفاء وخاطبها غاضباً وهو يخرطش مسدسه:

- «بشهر العسل يا خاينة؟».

وحاول كيوان أن يوضح له:

* «له يا أخ لا تغلط، زوجتك شريفة أنا ما بعرفها، أنا تعفشت مع الخزانة».

سمع الجيران إطلاق نار في شقة وضَّاح، وفي القضاء سُجِّلت القضية كجريمة شرف.

سعيد ابن عمِّي حمار

لم ينتسب سعيد إلى الحزب الشيوعي نتيجة لتأثره بالفلسفة الماركسية، فهو قبل انتسابه للحزب لم يفتح كتاباً له علاقة بهذه الفلسفة، كما أنه لم يفعل ذلك بعد انتسابه إلى الحزب. وعلى الرغم من استماعه إلى العديد من المحاضرات المتعلقة بهذا الموضوع في الاجتماعات الحزبية، إلا أنه لم يكن يفهم منها شيئاً، فقد كان في معظم الأحيان يشرد ويفكر في موضوع آخر لا علاقة له بالسياسة بتاتاً. ولكنه كان يحفظ العديد من عناوين الكتب والشعارات التي يرفعها الحزب، وكان هذا كافياً ليصبح سعيد من عداد المثقفين ضمن معايير القرية التي كان يعيش فيها. ولكن اعتباره مثقفاً لم يكن كافياً لرفعه إلى مصاف الوجهاء في القرية، ولهذا فهو لم يصبح وجيهاً بسبب ثقافته ولكن بسبب ضيوفه. فبعد أن انتسب إلى الحزب الشيوعي اتخذت حياته

منحى جديداً، فقد أصبح من بين زواره معلمو المدرسة وموظفون لهم قيمتهم وأحياناً أطباء ومهندسون كانوا جميعاً أعضاء في الحزب الشيوعي ويأتون إلى القرية في مهمات حزبية. ولذلك فقد ارتفعت هيبة سعيد في القرية بشكل شاقولي، وتحول في غضون سنة من شخصية مغمورة إلى شخصية يتباهى الجميع بمعرفتها، خاصة وأن أحد المهندسين الذين كانوا يزورون سعيد كان في العام الماضي مشرفاً على عملية تعبيد طريق القرية، وكانت كلمة من سعيد تكفي الشخص لكي يقبله المهندس للعمل في هذا المشروع. كما أنه كان يعطي قصاصات وساطة لدى هذا الطبيب أو ذاك المهندس أو الموظف، والذين بدورهم يؤدون الخدمات لهؤلاء برحابة صدر بعد اطلاعهم على توصيات الرفيق سعيد. وقد ارتفعت شعبية سعيد بشكل خاص بعد أن قام نائب البرلمان عن الحزب الشيوعي بزيارته، والحقيقة أن تلك لم تكن زيارة بكل معنى الكلمة، فالنائب جاء ليقود اجتماعا حزبياً لبعض الكوادر الحزبية في القرى المجاورة، وكانت قرية سعيد تتوسط هذه القرى، فاختير بيت سعيد مكاناً للاجتماع كونه الرفيق الوحيد في القرية.

ولأن مكانته الحزبية لم تكن تخوله حضور الاجتماع، فقد اقتصرت مشاركة سعيد في هذا الاجتماع على واجبات الضيافة، حيث أنه كان يقدم الشاي بين الحين والآخر، وإذا احتاج أحدهم لمنفضة سجائر يقدمها له، إضافة إلى إفراغ المنافض وغسلها كلما

امتلأت أمام الرفاق. كما أنه ذبح خروفاً ودعا بعض وجهاء القرية إلى الغداء على شرف النائب بعد انتهاء الاجتماع. أمَّا النائب فقد جاء وذهب ولم يعرف من هو صاحب البيت، ولكن هذا لا يهم، ويكفي اجتماع مثل هذا الجمع الغفير من الشخصيات رفيعة المستوى في بيته ليصبح سعيد أهم شخصية في القرية، حتى أهم من المختار، خاصة وأن أهل القرية لم يكونوا يميزون بين البرلمان والحكومة وبين النائب والوزير، وكل هذه المؤسسات كانت تمثل لهم السلطة. ولذلك فقد أخذ سكان القرية يقدمون العرائض لسعيد بدلاً من المختار، خاصة أن العرائض التي كانت تقدم لسعيد كانت تُنَفّذ بعد أن يوصلها سعيد للرفيق النائب عن طريق الحزب، أما العرائض التي كانت تقدم للمختار والذي كان بدوره يرفعها للمحافظ فقد كانت تُهمل ولم تنفذ أي عريضة منها، الأمر الذي اشعل الحقد في صدر المختار وكاد يرسل بعضاً من أزلامه ليتسللوا إلى بيته ليلاً لكي يؤدبوا به القرود ويعلموه ما هو جزاء أولئك الذي يتطاولون على مقام المختار. ولكن زوجة المختار كانت أكثر حكمة ونهته عن فعل ذلك، ولفتت نظره إلى أن قيمة سعيد نابعة من انتسابه إلى الحزب، فلمَ لا ينتسب هو إلى الحزب وبذلك يضع سعيداً خلف ظهره؟ وراقت الفكرة للمختار وتراجع عن فكرته الدموية التي كان قد أزمع القيام بها، ولأنه لا يعرف أحداً من أعضاء الحزب غير سعيد، فقد توجَّه إلى بيته وقرع بابه وأفصح له عن رغبته.

لم يشعر سعيد بالفرح لأن عدد أعضاء الحزب سيزداد واحداً في القرية، فالمختار في نظره، وكما علّمه الحزب، يعتبر رمزاً من رموز الإقطاع، إحدى الطبقات المستغِلة، ولكن وبصفته ابن قرية، فقد كان من الصعب عليه رد المختار دون تلبية رغبته. فرحَّب به وأدخله وأملى عليه ديباجة طلب الانتساب إلى الحزب وطلب منه التوقيع عليها، غير أن المختار إمعاناً منه في التملق قرر أن يبصم ويضع ختم المخترة على الطلب. وعندما قدم سعيد الطلب لسكرتير فرقته الحزبية اعتذر عن إقدامه على هذا الفعل، وحاول أن يبرر موقفه. ولكن سكرتير الفرقة طمأنه وربَّت على كتفه وشرح له ظاهرة ما يسمى بـالانسلاخ الطبقي، وطلب منه أن يبلغ المختار أن الحزب سيدرس طلبه ويرد عليه.

ولكن لسوء حظ سعيد والمختار وكل أعضاء الحزب فقد حدث في تلك الليلة بالذات انقلاب عسكري، وكان الرفيق النائب أول شخص تم جره من فراشه ليلاً بثياب النوم ليودع السجن، والأمر نفسه حدث مع الكثيرين من رفاق سعيد.

زفَّ أزلام المختار الخبر لمختارهم كما لو أنهم يقدمون له هدية لا تُقدَّر بثمن، وأعلموه أنهم سيقومون بالوشاية بسعيد إلى الشعبة الثانية. ولكن دهشتهم كانت كبيرة عندما طلب منهم المختار عدم فعل ذلك، وأخبرهم أنه طلب من سعيد أن ينظمه في الحزب، فطمأنوه قائلين إن الجميع يعرفون أن المختار عدو لكل الأحزاب ومن المستحيل أن يفعل ذلك، ولم يجد المختار بُدّاً من

التوضيح بأن طلب الانتساب مكتوب بخط اليد وممهور ببصمته وختم المخترة. وعندها ضرب الأزلام كفاً بكف ولم يخفوا تذمُّرهم من الحماقة التي ارتكبها مختارهم الذي قال مبرراً: «هذا جزاء من يسمع كلام النسوان».

في الليل عندما سمع سعيد وقع أقدام في باحة الدار، ظن أن عناصر الشعبة الثانية جاءوا لاعتقاله، ولذلك فقد حمل حقيبته التي أعدها مسبقاً لهذا الأمر وفتح لهم الباب، لكنه فوجئ بأشخاص ملثمين يرتدون الزي الفلاحي وينهالون عليه ضرباً ثم يقيدونه بحبل، ويبدأون تفتيش البيت مبعثرين الأغراض كما لو أنهم مجموعة من الوحوش تنبش جوف فريسة. وبعد فترة تركوه على الأرض مقيداً بالحبال وانصرفوا دون أن يتمكن من معرفتهم. أما هم فقد نزعوا اللثام في بيت المختار وأعلنوا له أن طلب انتسابه غير موجود في بيت سعيد. عندها لم يجد المختار بُدّاً من الذهاب بنفسه إلى منزل سعيد من أجل الحصول على طلب الانتساب، وما هي إلا ربع ساعة حتى كان يفك عن سعيد الحبل ويلعن أولاد الحرام الذين قاموا بفعل ذلك، وارتاح كثيراً عندما علم أن سعيد لا يشك بأحد معيَّن. ثم أخرج من جيبه ورقة بيضاء وطلب من سعيد أن يرد له طلب الانتساب القديم لكي يعيد كتابته على ورق أبيض قيصري، كما كان المختار يسمِّي الورق الأبيض المصقول، فالورق الذي كتب الطلب السابق عليه كان من الورق الأصفر ولا يليق بمقام الحزب. غير أن سعيد اعتذر منه وأخبره أنه سلم

الطلب للرفاق لدراسته ثم طمأنه بأنهم على الأغلب سيقبلون به في الحزب، وشرح له ظاهرة "الانسلاخ الطبقي" كما علقت في ذهنه بعد شرح الرفاق. أما المختار فظن أن سعيد يريد الاحتفاظ بالطلب لكي يبقى في مأمن من ناحية المختار وأزلامه وتصنع أنه يصغي إليه، ثم غادر المنزل خائباً.

باختصار، فإن طلب انتساب المختار تحديداً هو من حمى سعيد من الوشايات، لأن المختار حظر على رجاله أن يذكروا سعيداً في أي تقرير يرفعونه إلى الشعبة الثانية.

لكن الرياح لا تجري دائما كما تشتهي السفن كما سبق وقال الشاعر. فقد أخذ سعيد كل الاحتياطات لكيلا يقع في قبضة الأمن، فيما يسمى ضمن المصطلحات الحزبية بـ"اليقظة الثورية"، ولكنه ترك خاصرته مكشوفة للعدو. أما خاصرته الرخوة هذه فهي ابن عمه حسن.

كان حسن يعمل راعياً للغنم، أمّياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وكان يحب سعيداً ويعتبره مفخرة العائلة، ولذلك فقد كان ما يقوله سعيد له بمثابة بدهيات لا تحتاج إلى النقاش. ولكن بما أن حسن يمضي جميع أوقاته تقريباً في البرية، فقد كان يجهل جميع التغيرات التي حصلت، وهو لم يكن يهتم بها أصلاً، ولذلك فقد كان لا يزال يعيش على أمجاد زيارة نائب البرلمان إلى بيت ابن عمه سعيد، وكان يعتقد أن الشيوعيين في السلطة، فنائب البرلمان هو

أقصى سلطة سياسية يسمع بها حسن، وبما أن النائب شيوعي فإن السلطة شيوعية، ولهذا فإنه في كل قرية يتوقف فيها كان يتحدث عن الحزب الشيوعي مكرراً العبارات التي ألقاها سعيد على مسمعه، وكان يطنب في المديح ظناً منه أنه يمتدح السلطة. فكان يقول مثلاً: «يا أخي هالحزب الشيوعي لا مثيل له». أو «قل لي ما هو الحزب الذي يعجبك أقول لك الحزب الشيوعي ولا حزب غيره، حزب العمال والفلاحين» أو «لا أحد يستطيع أن يقف في وجه الإمبريالية غير الحزب الشيوعي». وعندما سأله أحدهم ماذا تعني الإمبريالية؟ صفن طويلاً قبل أن يجيبه، ثم قال منطلقاً من كره سعيد لها «شغلة وسخة»؟ ولكن جوابه لم يقنع السائل، فأردف، «شو يعني شغلة وسخة؟». مما أوقعه في مأزق وجعله يتهم سائله بالغباء لأنه لا يعرف الإمبريالية.

وعندما كان حسن ينزعج من ظاهرة ما، كان يعرب عن ذلك قائلاً «لو كنت مسؤولاً في الحزب الشيوعي لكنت أعدمته، هذا ليس ببني آدم هذا، لكن ما العمل، لا يستطيع الحزب أن يعدم الجميع». وبسبب كل ما يردده سعيد عن الحزب فسرعان ما وصل تقرير إلى الشعبة الثانية في جهاز الأمن يؤكد أن حسن شيوعي.

قوبل التقرير في الشعبة الثانية بالسخرية، لأنهم يعرفون حسن جيِّداً، فهو من يبيعهم الحليب واللحم والجبن وغير ذلك من المنتجات المرتبطة بالماشية. وكان بغبائه وسذاجته محط تندرهم

الدائم، وأن تقول إن حسن شيوعي فكأنك تقول إن الحمار يتكلم الإنكليزية بطلاقة. ولكن الرقيب الذي قرأ التقرير فضل أن يطلع عليه الضابط المسؤول قبل أن يلقي به في سلة القمامة تحسباً لمسؤولية قد تقع عليه، وعندما سأله الضابط عن إمكانية صحة هذه المعلومات قال:

- «أصدق أنهم صعدوا إلى القمر ولكنني لا أصدق أن حسن يمكن أن يكون شيوعياً. هذا رأس طرش لا يفهم بمثل هذه الأمور».

وكان الصعود إلى القمر في تلك الفترة ضرب من المستحيل، حيث لم يكن هناك وجود لأبولو بعد.

بعد ذلك مزق الضابط التقرير وألقى به في سلة القمامة مرجعاً سببه لثأر شخصي بين صاحبه وحسن.

ولكن التقارير التي وصلتهم بعد ذلك والتي تتهم حسن بأنه شيوعي جعلتهم يفكرون في الأمر ويرسلون دورية لتقصي الحقيقة.

عندما توقفت سيارة الشرطة أمام منزل حسن كان الخوف هو الأمر الوحيد الذي لم يشعر به حسن، وإنما اختلجت في نفسه مشاعر أخرى هي مزيج من الفرح والاعتزاز وما شابه ذلك من الأحاسيس الإيجابية. فسيارة الحكومة تتوقف أمام منزله للمرة الأولى! وعندما خرج لاستقبال الدورية حدث نفسه قائلاً:

«تمسيح الجوخ جاب نتيجة». منوهاً إلى إطنابه في مديح الحزب الشيوعي، وتوقع في دخيلته أنه من غير المستبعد أن يزوره النائب في البرلمان قريبا كما زار ابن عمه سعيد من قبله.

أدرك عناصر الدورية من الاستقبال الحميم الذي قابلهم به حسن أن ليس للشيوعية رائحة في منزله، وتناسوا أمر التقارير وقرروا عدم إجراء تحقيق في الأمر بتاتاً، غير أن أحدهم قال ساخراً وهو يعيد فنجان القهوة المرة الذي احتساه:

- «شو يا حسن؟ سمعنا أنك صرت شيوعياً؟!».

فردَّ حسن متحسراً حسرة من يحلم بنيل شرف لا يستحقه:

* «أنا لا والله، لكن سعيد ابن عمي مسؤول كبير في الحزب الشيوعي، سعادة النائب كان يزوره شخصياً في بيته».

ومن أجل منفعة سعيد أردف حسن:

* «قيادة الحزب تشاوره في كل صغيرة وكبيرة، كل الاجتماعات تجري في بيته ولا يعصى عليه سؤال، يمكنه الإجابة عن كل شيء. رجل مطلع ويفهم».

وأطنب حسن في إطراء سعيد، وكأنما ما يتفوه به عن سعيد سيسهم في تعيينه محافظاً أو وزيراً. وكان هذا الإطناب بطبيعة الحال كافياً لاعتقال حسن وسعيد معاً، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى كان الاثنان يتعرضان للتحقيق في الشعبة الثانية.

عندما سأله المحقق إن كان شيوعياً، غص سعيد برشفة

القهوة التي كان قد رشفها من الفنجان الذي قدموه له في الشعبة الثانية، حيث دخلت القهوة في شعبته الهوائية وسعل سعالاً شديداً واحمرت عيناه، ولم يكن قادراً على الإجابة. مما دفع ابن عمه حسن للإجابة مؤكداً عضوية سعيد في الحزب، مثبتاً ذلك بالزيارة التي قام بها نائب البرلمان لمنزله قبل عام. مما اضطر سعيد إلى كبت سعاله وتمالك نفسه لينفي كل ما قاله حسن، ثم يتابع سعاله الحاد. غير أن حسن ظن الدافع لهذا الإنكار تواضع سعيد الذي يضيع كل الفرص بسببه، وأخذ على عاتقه وضع ابن عمه سعيد في مكانه الطبيعي. وأكد من جديد أنه شيوعي، ولم تنفع جميع تأكيدات سعيد بعد ذلك في أنه غير شيوعي.

دب الهلع في القرية بعد اعتقال سعيد وحسن، وصار كل من قال لهما مرحباً أو زار أحدهما يحسب ألف حساب وحساب. أما في بيت حسن فقد تجمع الأقارب يواسون بعضهم بعضاً وينتظرون خبرا مطمئناً عن مصير الشخصين المعتقلين، وفي المساء عاد حسن لوحده، فأخذ الجميع يسألونه عن سعيد الذي لم يعد، فأجاب بقرف:

- «سعيد ابن عمِّي حمار».

استغرب الجميع ذلك، وسأله أحدهم بلهفة:

* «ما الذي جرى؟».

فكرر حسن المقولة نفسها بطريقة أخرى، وباستياء وقرف أيضاً:

- «كل شيء كنت أتوقعه إلا هذا الأمر، كنت أظنه يفهم ولكن تبين أنه حمار».

* «ما الذي حصل؟».

كرر أحدهم متلهفاً لمعرفة أخبار سعيد التي اتخذت طابع التشويق بفعل لهجة حسن الذي عاد وأكد:

- «ما كنت أتوقع أبداً أنه حمار لهذه الدرجة».

قفز أحدهم وأمسك بخناق حسن وقد فقد صبره:

* «قل ما الذي حصل قبل أن أخنقك وأقضي على مستقبلك، العمى!».

أبعد حسن يدي الشخص دون اكتراث:

- «الآن عندما أقول لك ما الذي حدث، ستقضي على مستقبل سعيد الحمار، وليس على مستقبلي أنا، هذا إذا بقي له مستقبل. فقد سمعت صراخه من الداخل كما لو أنهم يقومون بذبحه».

* «يا أخي فهمنا، يكفي، قل ما الذي حصل وخلصنا».

- «الذي حصل، أن الجماعة أخذونا، وبكل احترام أدخلونا لعند رئيس الشعبة، وضيفونا قهوة ومن أفضل ما يكون. نقيب يا جماعة نقيب سقانا قهوة، نقيب مش عريف ولا عسكري».

* «المهم، المهم؟».

استعجله أحدهم فأردف:

- «رئيس الشعبة سأل سعيد: أنت شيوعي؟ سعيد قال لا. يا بني آدم أتخجل من ذلك؟ قالوا له وصلتنا معلومات أنك شيوعي. فأنكر وقال إن الذي أوصل هذه المعلومات كذاب. فلم أتحمل نفسي وقلت له أنت الكذاب! كل أهل البلد يعرفون أنك شيوعي، لماذا تخجل؟».

* «المهم، المهم؟».

قال أحدهم مستعجلاً إياه فقال:

- «المهم سعيد الحمار وضع رأسه بالحائط ولم يعترف، فأعطوا لكل واحد منا ورقة كُتب عليها شيء ما وقالوا وقِّعوا. أنا أمِّي لا أقرأ ولا أكتب، فبصمتُ. سعيد الحمار رفض التوقيع، وقِّعْ يا بني آدم، شو توقيع وزير الدفاع؟!».

* «المهم، المهم؟».

كرَّر أحدهم مستعجلاً.

- «المهم». قال حسن متنهداً «يجب أن نبحث عن شخص يدخلنا إلى الحزب الشيوعي، فكل شخص ينكر أنه شيوعي يضعونه في السجن، كما حصل مع سعيد، الحمار».

ثم أنهى حديثه:

- «لأ خيو... منصير مو شيوعيين، قرود منصير، المهم ما حدا يقرب صوبنا».

كلسون الخام الألماني

يعتبر عبود مهنا سلطان من الناس الميسورين بمعايير القرية، ولذلك فعندما شاهد على حبل الغسيل كلسون الخام الألماني الذي أصبح ضيقاً عليه بعض الشيء، فكر في التصدق به على نجم القاضي. أما نجم القاضي ومع أنه محتاج ويستحق الصدقة فعلاً، فإن شيئاً وحيداً فقط كان لا يحتاج إليه، وهو الكلاسين، فقد كان عنده وفرة منها، لأن كل أكياس الطحين كانت تتحول على يدي زوجته إلى كلاسين. ولكنه خجلاً قبل الصدقة التي جاء بها عبود مهنا سلطان في كيس لفه وأعاده إلى جيبه بعد أن أخرج منه الكلسون وقدمه إلى نجم، ونوه له بحركة تدل على قيمة الهدية:

- «خام ألماني، حتى لو قمت بحفه بالحجر فلن يهترئ».

* «كثر الله خيرك».

أجابه نجم دون اكتراث ووضع الكلسون جانباً. وهذه اللحظة بالذات كانت بداية لمأساة نجم التي ستسجل في تاريخ القرية، ففي اليوم التالي تحديداً شاهد عبود مهنا سلطان نجم القاضي في الساحة، وقبل أن يقول له صباح الخير بادره على مسمع الجميع سائلاً:

- «كيف الكلسون؟ أرجو ألا يكون ضيقاً».

* «لا، شكراً لك. كل شيء على ما يرام».

أجاب نجم القاضي مزدرداً لعابه إحراجاً أمام من لفت انتباههم سؤال عبود، وتنفس الصعداء عندما عاد كل إلى أشغاله. ولكن عبود عاجله بالسؤال الثاني:

- «هل دكة الكلسون رخوة، أم ما زالت متينة؟ إذا كنت تشعر بها رخوة فعندي ذراع ونصف من المطاط أعطيك إياه تدكك به الكلسون».

* «لا الحمد لله، ليست رخوة. متينة، متينة جداً».

وازدرد لعابه إحراجاً مرة أخرى بعد أن ازداد عدد المهتمين، عندما وصل الحديث إلى دكة الكلسون.

- «ممتاز، ممتاز» قال عبود ثم تابع «لم أنم طوال الليل بسبب التفكير، خشيت أن تكون الدكة قد ارتخت فقلت لنفسي سيعتب علينا نجم ويقول: آها! تحسن علينا عبود بكلسون دكته رخوة».

شعر نجم وكأنه في دوامة من الرمال المتحركة، فتمنى أن تبلعه

وتنهي معاناته، أو أن تهب عاصفة وتكنس وجه الأرض من آخر حبة رمل، واكتفى بالجواب مجاملة:

* «كثر الله خيرك، لم تقصر أبداً».

- «ما الذي تقوله يا رجل؟ لم أقم بأكثر مما يمليه الواجب. إنه مجرد كلسون، من يسمعك يظن أنني أهديتك مرسيدس».

لم يرد نجم راجياً أن يقطع حبل الحديث بصمته، وكان مصيباً فيما فعل، فقد صافحه عبود مهنا سلطان وتابع طريقه.

عاد نجم القاضي إلى بيته معكر المزاج واستمر معه ذلك حتى غفا ليلاً بعد صراع طويل مع الأرق، حيث راودته أحلام وردية جعلته ينسى عبود مهنا سلطان وكلسونه الخام الألماني. إلا أن سيرة الكلسون الخام الألماني لم تقفل هنا، ففي اليوم التالي عندما صادفه عبود في الساحة صاح به وهو يحث الخطى نحوه:

- «طمئني نجم، كيف الكلسون؟».

* «الكلسون بألف خير والحمد لله».

أجاب نجم ممتعضاً بعض الشيء. ولكن عبود لم يلحظ ذلك في نبرته، بل شاهد فيها آيات الشكر على هذا الكلسون الذي اعتقد أنه الحدث الأهم في حياة نجم، ومد يده إلى جيب الجاكيت وأخرج من هناك شيئاً ما، مده إلى نجم قائلاً:

- «أمسك، لقد أحضرت لك المغيطة من أجل دكة الكلسون خشية أن ترتخي أو تنقطع وأنا مسافر».

وضع نجم المطاطة في جيبه ولم يشكره حتى، خشية أن يطور الحديث، خاصة وأنه كان يشعر أن الجميع يشاهدون كلسونه وهو يتحدث مع عبود. غير أن عبود فاجأه بسؤال لم يكن في الحسبان:

- «هل تعرف كيف تدكك المطاطة في دكة الكلسون أم أشرح لك؟».

تلوى نجم وتمنى لو كان في يده سلاح ناري ما لكي يفرغ كل طلقاته في قلب عبود، ولكنه بالطبع أبقى على هذه الأمنية حبيسة رأسه وأجاب:

* «يا رجل... تسأل وكأنني سأخترع قنبلة ذرية، إنها مجرد مطاطة».

- «هه، قنبلة ذرية! تسخر؟ الألمان كل صناعاتهم معقدة ولها طريقة خاصة للتعامل معها، حتى الكلاسين، يا سيدي هل تعلم أن تدكيك كلسون ألماني أصعب من اختراع قنبلة ذرية يابانية».

ثم نظر إلى حزام بنطال نجم وقال له:

- «أنزل البنطال».

وهنا لم يجد نجم بُدّاً من التذمُّر، وقال:

* «لا يوجد مشكلة يا أخي. إذا قطعت دكة الكلسون أو ارتخت سأرفع الكلسون، لماذا خلق الله للإنسان يدين؟ لكي يرفع كلسونه إذا ارتخت الدكة».

لاحظ عبود الخجل في ملامح نجم فسخر منه:

- «احمرَّ وازرقَّ واخضرَّ لأننا قلنا له أنزل البنطال. ما بك مثل النساء؟ قلنا لك أنزل البنطال ولم نقل لك اخلع. أنت رجل يا أخي، رجل. لا داعي للخجل لن تخرب الدنيا إذا وقعت عين أحدهم على دكة كلسونك».

لم يجد نجم بُدّاً من تلبية طلب عبود، وندم لأنه اعترض في البداية، فقد ازداد عدد المراقبين ثلاثة أو أربعة اشخاص بسبب ذلك، فأنزل البنطال وسرعان ما أمسك عبود بالدكة وأخذ يشرح له:

- «هنا يوجد فتحة، تعلق المطاطة بدبوس وتبدأ بتدكيكها حتى تخرج من الطرف المقابل فتربطها وانتهى الأمر. ارفع البنطال».

رفع نجم البنطال فطلب منه عبود:

- «انظر إلى الأعلى».

نظر نجم إلى الأعلى ظناً منه أن عبود يريده أن يرى شيئاً هناك، ولكن عبود قال له بعد أن نظر إلى فوق:

- «انظر إلى الأسفل».

نظر نجم إلى الأسفل ظاناً الظن نفسه، ولكنه لم يرَ شيئاً. فألقى نظرة استفسار على عبود الذي كان ينتظر هذه النظرة، فعاجله:

- «هل أطبقت السماء على الأرض لأنك أنزلت البنطال؟ لم تطبق، لا تزال في الأعلى والأرض مكانها في الأسفل، والحياة مستمرة كما ترى».

في تلك الليلة لم يشاهد نجم أحلاماً وردية، بل عاش كابوساً

ثقيلاً فيه الكثير من الكلاسين التي كانت تحاصره مكشرة عن أنيابها. وأكثر ما بعث الرعب في نفسه بينها ذلك الكلسون الضخم الذي كان يحلق على ارتفاع منخفض ويصليه بصواريخ جو أرض! ولأن كل شيء ميسر في المنام، فقد وجد نجم زوجته تمد له مدفعاً مضاداً للطائرات أخذه منها على عجل وسدد على كلسون الإف 16 كما سماه لاحقاً من باب الدعابة، ولكن المدفع كما في كل الكوابيس أصيب باستعصاء ولم يعمل، بينما أطلق الكلسون على نجم صاروخاً لا يمكن القول إنه مزقه إلى أشلاء، فقد نثره نثراً وجعله يتطاير في الهواء على شكل رذاذ.

استيقظ نجم من الكابوس وتلمس جنبات جسده، وعندما أدرك أنه حي يرزق مسح عرقه وشرب الماء ولم ينم بعد ذلك تلك الليلة.

في اليوم التالي، كما في الأيام التي سبقته شاهد عبود مهنا سلطان نجم القاضي في الساحة التي تصب فيها دروب القرية كلها، وكالعادة أيضاً سأله:

- «كيف الكلسون؟».

* «بألف خير، وفي غاية الشوق إليك».

رد نجم وفي نفسه رغبة في توجيه لكمة إلى أسنان عبود الأمامية بحيث يشاهد بعدها الدم يشخب من لثته نوافير غزيرة تتحول إلى بحيرة تبتلع عبود وكلسونه الخام الألماني معاً! أما

عبود الذي لاحظ تغيراً في نبرة نجم، فقد ظن أن نجم يداعبه فتابع:

- «هاهاها. أنا لا أسألك عن الكلسون عبثاً، فقد تذكرت ليل أمس أنني لم أنبهك لكيلا تغسل الكلسون في غسَّالة. اغسله باليد، فهو يكش، وهذا هو العيب الوحيد فيه، مريح للجسم ناعم على الجلد، ولكنه يكش، كلاسين الخام الصناعة المحلية لا تكش، ولكنها بالمقابل خشنة كالجنفيص، عندما تلبسها تشعر بمحاشمك عدم المؤاخذة وكأنها على قطعة برداخ[1]... ما العمل؟ هكذا هي الدنيا، لكل شيء، كما قال أبو العلاء، إذا ما تم نقصان».

* «يا ابن الستين كلب، هل تظنني ألبس كلسونك الخام مرة وإلى الأبد؟ لقد غسلته عشرين مرة منذ أن ابتليت به».

هكذا كان نجم يتمنى أن يقول لعبود، ولكنه لم يقله، بل قال له:

* «الحمد لله، ليس عندنا غسالة».

- «ممتاز». قال عبود وتابع «أيضاً أريد أن أنبهك إلى عدم استعمال مساحيق الغسيل، لأن مساحيق الغسيل تتفاعل مع الخام ويبقى أثرها فيه، مما قد يؤدي عدم المؤاخذة إلى حكة في المحاشم، وأنت تعرف كم يشعر المرء بحرج إن اضطر إلى حك محاشمه في الشارع أو في جلسة ما، سيلاحظ الناس ذلك ويعيبونه عليه».

* «زوجتي لا تعرف غير صابون زهر الزيتون».

---

(1) كلمة تركية، وهي آلة للصقل.

قال نجم محاولاً أن ينهي الموضوع.

- «أفضل شيء، الصابون أفضل شيء».

ومد يده مصافحاً نجم الذي تنفَّس الصعداء ظناً منه أن المصافحة هي نقطة النهاية للحديث، كما هي العادة. ولكن عبود أعاد يده فجأة إلى جيبه قبل أن يجري المصافحة، قائلاً:

- «لحظة، لحظة، جلبت لك الدبوس».

ثم مد له الدبوس وأردف:

- «هؤلاء الألمان أولاد كلب، دقيقون على الشعرة، حتى في دكك الكلاسين. يا رجل، يخترعون الكلسون وكأنهم يخترعون ميغ سبعة عشر! اجعل ذنب الدبوس إلى الأمام عندما تدكك المطاطة، ورأسه إلى الخلف، تحسباً، فقد ينفتح فجأة ويصبح من الصعب دفعه».

* «حاضر سيدي».

وجد نجم نفسه يقول لعبود الذي قال عدة كلمات أخرى لم يسمعها نجم، ثم انصرف.

ولم يتنفس نجم الصعداء في هذه المرة حتى شاهده يختفي خلف المنعطف.

لم يشاهد نجم كوابيسَ تلك الليلة لأنه لم يغمض له جفن. ولكن رغبات كثيرة راودته كأحلام يقظة، فمرة دخل إلى الساحة ومعه رشاش دكتريوف وأفرغ شريطه كاملاً في جسد عبود مهنا

سلطان. ومرة شاهد نفسه يعلق الكلسون على حبل الغسيل ويرميه بسهم من قوس النشاب ويصيبه في منطقة المحاشم تماماً، ليسبب له أكبر قدر من الألم، فقد بدأ يشعر أن روحاً شريرة تسكن كلسون الخام الألماني ذلك. وفي أحلام أخرى سكب على الكلسون البنزين وأحرقه، وفعل بالكلسون وبصاحبه الأساسي كل ما يمكن أن يفعله شخص حاقد ناقم بمن يرغب في الانتقام منه، غير أنه في اللحظات التي كان يثوب فيها إلى رشده، كان يفكر فيما يتوجب عليه فعله لكي يتخلص من مأساة الكلسون، فلم يعثر على طريقة تخلصه من هذا، واكتفى بالأمل أن يمل عبود مهنا سلطان يوماً من السؤال عن الكلسون، وبذلك تكون مشكلته قد حلت. ولكن ذلك لم يحصل، ففي كل يوم كان عبود إضافة لسؤاله عن الكلسون ومديحه للمنتج الألماني، يقدم له توجيهات جديدة فيما يخص التعامل مع الكلسون الخام الألماني.

وبما أن لكل وعاء طاقة على الاستيعاب، فإنه لا بد لهذا الوعاء في نهاية المطاف من الانفجار، وهذا ما حدث مع نجم القاضي. ففي أحد الأيام، وكانت الساحة مكتظة، وبعد أول سؤال من قبل عبود مهنا سلطان عن كلسون الخام، وجد نفسه بشكل آلي يخلع بنطاله ثم يخلع كلسون الخام ويناوله لعبود شاكراً إياه:

- «أشكرك جزيل الشكر على كلسون الخام الألماني! ولكن خذه وخلصني منه لأنني لا أجيد التعامل مع الصناعة الألمانية».

ثم التفت إلى الجمع الذي أخذ يحدق بعضه في مؤخرته العارية فاغراً فاهه، وبعضه الآخر في مقدمته العارية فاغراً فاهه أيضاً، وقال بصوت يتهيأ للسامع معه أن أفعى تخرج من صدره:

- «يا جماعة لا تؤاخذوني. أقسم لكم، أن يكون الشخص عارياً خير له من أن يستر عورته بكلسون عبود مهنا سلطان، حتى ولو كان "بوبلين" وليس خاماً ألمانياً فقط».

ساكسافون

- «شو الاختصاص؟».

تساءل أبو صالح عندما شاهد خليل باللباس العسكري وعلى ذراعه رتبة الرقيب أول، فأجابه خليل: «ساكسافون».

- «شو هوي؟».

تساءل أبو صالح الذي من الواضح أن يسمع الكلمة لأول مرة في حياته، فأجاب خليل مشدداً على الحروف وقد شعر بشيء من الاعتداد بهذا الاختصاص الذي لا يعرفه العامة:

* «ساكسافون».

- «وهذا يعني شو؟ مدرعات، ولا دفاع جوي ولا شو؟ شي نوع من راجمات الصواريخ ولا سلاح فردي؟ ولا ميم دال؟ ولا؟».

* «لا. هذا مش سلاح عمي بو صالح، هذا آلة».

- «كاسحة ألغام يعني؟».

* «عمي أبو صالح خليني كفيلك، آلة موسيقية هذه. أنا أخدم في الفرقة العسكرية الموسيقية».

- «آآآآ».

فتح أبو صالح فاهه على مصراعيه معلناً أنه استوعب الاختصاص، ثم تساءل:

- «وكيف شكلها هذه الآلة؟».

فأخذ خليل يشرح له بشيء من التفاخر وبنبرة احترام للآلة:

* «آلة نفخية معقدة. إلها أهمية كبيرة بالأوركسترا، والعزف عليها صعب جداً».

لوى أبو صالح عنقه بمداعبة لا تخلو من الازدراء وقال:

- «قول بوّاق من الأول يا زلمي. البوق بالإنكليزي اسمه سكسفون يعني؟».

صمت خليل ولم يجب على سؤال أبي صالح. ولكنه لما سببه من إساءة للساكسافون، تلك الآلة التي كان يجلها ويعاملها كما لا يعامل حبيبته، ولشدة خجله من الساكسافون، تمنى لو كان رامي رشاش في جماعة مشاة راجلة أو حتى مجرد غر أحمق يؤدي التحية بيده اليسرى.

البرواظ

كانت الجدران في غرف منزل جوهر تكتظ بالإطارات التي يحتوي كل منها على صورة من مناسبة ما، تجمعه بمسؤولين من مستويات مختلفة، تصل إلى مستوى وزير أحياناً. وما كان يميز تلك الصور جميعاً هو أن جوهر في جميعها يطل برأسه من خلف صف المسؤولين، وتحديداً في النقطة التي يقف فيها أرفع مسؤول بينهم، مرة تشاهده يطل بعينيه من خلف رأس المسؤول، ومرة تشاهد رأسه كاملاً، ومرة تشاهده حتى كتفيه. ذلك كان يتعلق بالدرجة الأولى بطول ذلك المسؤول، وبارتفاع الأداة التي يتسنى لجوهر الوقوف عليها. ومن هنا يمكن أن نفهم احترام وحب جوهر للمسؤولين قصار القامة، أكثر من أولئك الذين كانوا يتمتعون بطولها. أما أعز صورة على قلبه، والتي كانت تتوسط صدر الجدار المقابل للباب في غرفة الضيوف، فكانت تلك الصورة التي تجمعه

في عناق حميم مع المحافظ. أما الحقيقة فإن ذلك لم يكن عناقاً على الإطلاق، ففي ذلك اليوم لم يجد جوهر ما يضعه تحت قدميه لكي يتمكن من الظهور في الصورة خلف المحافظ، سوى تنكة قديمة كان يستخدمها عمال البناء لنقل الإسمنت، ولكنها، وما إن صعد إليها، حتى تهاوت تحته وسقط. فتلقفه المحافظ ووجّه له أقذع الشتائم، ولكن من حسن حظ جوهر أن عدسة الكاميرا لا تلتقط الشتائم.

يقف جوهر اليوم أمام هذه الصور التي تباهى بها سنين طويلة، ويفكر فيما سيفعله بها، فبعد الصورة التي ستلتقط له في الأسبوع القادم ستصبح هذه الصور كلها بلا أدنى قيمة، لا تساوي قشرة بصلة، فقد دُعي جوهر صباح اليوم إلى مركز الناحية وأبلغه أمين الفرقة الحزبية بأنه سيكون ضمن مجموعة مختارة من سكّان قرى المنطقة، تشكّل الوفد الذي سيكون ضمن اللقاء التاريخي المشهود، الذي ربما لن يتكرر في حياته مرتين، حيث سيزور الرئيس المنطقة وسيلتقي مع وفد من سكان القرى.

فرحة الرفيق جوهر لم تكن باللقاء المنتظر مع الرئيس بقدر ما كانت بالصورة التي سيتم التقاطها في نهاية اللقاء معه وهو يصافح الحضور مودعاً. ومنذ أن بُلِّغ بخبر اختياره كواحد من النخبة المختارة لحضور هذا اللقاء التاريخي، لم تكف مخيلة جوهر عن العمل لا في اليقظة ولا في المنام. كان يفكر فيما سيرتديه في اللقاء، وكيف سيصافح الرئيس، هل يبتسم معبراً عن فرحته؟ أم

يحتفظ برزانته لمنح الصورة هيبة إضافية؟ أم يقف باستعداد؟ أم يؤدي التحية في سلوك رمزي معناه أننا كلنا جنودك؟ والكثير من الأشياء الأخرى. ولكن أكثر ما كان يؤرقه هو أن الصورة الموعودة ستفقد قيمتها بين مجموعة الصور الكثيرة التي تزين جدران بيته، وربما لن ينتبه لها البعض إذا لم يقم هو بتنبيهه، وهذا ما لا يريد فعله. إنه يريد للضيف أن يرى صورته وهو يصافح الرئيس بمجرد تجاوزه لعتبة المنزل. من يكون المحافظ، وحتى وزير الري هذا المتعجرف الذي لعجرفته شعر جوهر بوطأته أكثر مما شعر بوطأة الجفاف، من يكون هذا الإمعة مقارنة مع الرئيس؟ إنهم جميعاً لا شيء مقارنة به، صفر على الشمال. هكذا كان يفكر جوهر وكأنما يبحث عن المبررات لكي يفعل ما قرر فعله، وبدون تردد نهض جوهر في شبه انتفاضة من مكانه وبدأ بنزع الإطارات عن المسامير، وإلقائها على "الدشك" (التسمية التي كان يطلقها جوهر على الأريكة العتيقة المتبقية من عهد الراصورات)، ولم يكن يخفي ازدراءه لهذه الشخصيات، معبراً عن ذلك الازدراء بزم شفتيه وتقليص ملامح وجهه وكأنه يشم رائحة كريهة. غير أنه خص شخصيتين منهما بتعليق إضافة إلى ملامح الاشمئزاز، الشخصية الأولى هي المحافظ الذي خاطبه جوهر وهو يرمي صورته على الدشك قائلاً:

- «إمعة!».

ومع أنه لا يعرف معنى هذه الكلمة، غير أنها على ما يبدو كانت

تعجبه كشتيمة، ويأتي حقده على المحافظ كما ذكرنا بسبب الشتائم التي وجهها له في الصورة التي كان يحتضنه فيها. أما حقده على وزير الري فلم نتبين سببه، حيث شيع جوهر صورته أيضاً قائلاً: «زبال في البلدية كثير عليك. لو أعرف أي حمار عيَّنك وزيراً!».

أما بقية الصور فرماها مكتفياً بملامح الاشمئزاز دون أن يضيف أي تعليقات.

الصورة يجب أن تكون بمفردها على الحائط، لا داعي لأي تشويش كان، ولكنه بعد أن نزع الصور وجلس على الفراش، فكر قليلاً وبدت ملامح وجهه جدية كما لم تبدُ كذلك من قبل، ثم نهض قائلاً:

- «لا تقل فول قبل أن يصبح في العدول».

أعاد الصور إلى مكانها مقرراً تركها حتى تصبح تلك الصورة الموعودة في حوزته، وقد فعل ذلك لأسباب إضافية أخرى، فهو لا يحب الجدران العارية، وفي الوقت نفسه لا يحب أن يرى أشياء تافهة معلقة عليها، وهو إن جرد هذه الحيطان من ساكنيها الذين في الصور سيجد المسامير التي كانت معلقة عليها، في غضون ساعة وربما أقل، وقد علقت فوقها المناشف وقطع الثياب المختلفة، فقرر ألا يترك لزوجته مثل هذه الفرصة الذهبية، وجلس يملأ الاستمارة التي طلب منه أبو طارق، أمين الفرقة، أن يملأها لكي تُرفع للجهات المسؤولة من أجل دراسة المرشحين

لتلك المقابلة. وبعد أن انتهى من الاستمارة، سحب درج الطاولة وأخرج من هناك دستة من الصور الشخصية التي فاضت عن حاجة الوثائق التي التقطها من أجلها سابقاً. ولأنه وجد صعوبة في انتقاء الصورتين اللتين سيرفقهما بتلك الاستمارة، فقد اضطر إلى طلب المشورة من زوجته التي أشارت إلى أول صورتين وقعتا تحت سبابتها، ولكن الصورتين لم تعجباه، كما أنه لم يعثر على صورتين أخريين، فقرر أن يمر صباحاً على محل التصوير ويلتقط صورة جديدة تليق بالمناسبة، وفي الوقت نفسه يسأل أبا أنيس المصوِّر إلى أي حجم يمكن تكبير الصورة، فهو يريدها أن تملأ الجدار، إن كان ذلك ممكناً.

في اليوم التالي، عندما سلم جوهر الاستمارة والصورتين للرفيق أبي طارق، كان يغمره الفرح، لأن أبا أنيس المصور أبلغه بأن الصورة يمكن تكبيرها إلى الحجم الذي يريده. ولكي تتم الفرحة فقد سأل جوهر أبا طارق من باب التحسُّب، هل يسمح له بأن يتحدث عن هذا اللقاء مع الرفاق "المناظلين" وبقية الجماهير، أم أنه يفضِّل الصمت لدواعي أمنية؟ فأجابه أبو طارق بأن لا مشكلة في الموضوع. وكما في كل مرة، نبَّهه أن ينطق الضاد بشكل صحيح، منبِّهاً إياه إلى أن الضاد هو الحرف الذي يميز العربية. فأعرب جوهر عن علمه بالموضوع وقال:

- «أعرف، أعرف، لسان (الظاد) يجمعنا، بغسان وعدنان، مفهوم».

بعد أن حصل جوهر على الضوء الأخضر، استقل الحافلة المتوجهة إلى قريته فور خروجه من عند أبي طارق. وفي الطريق الذي لا يستغرق أكثر من ربع ساعة، وجد ما يكفي من الوقت للحديث عن هذا اللقاء مع كل من ركب الحافلة، وعندما ترجل لم يذهب إلى بيته مباشرة، بل توجه إلى دكان القرية واشترى كيلوغراماً من الحلوى، التي لا يشتريها عادة، وقد فعل ذلك بناء على المخطط الذي كان قد رسمه في الطريق، والذي يقتضي أن يدخل جوهر إلى دكان عبودي ويطلب منه أن يعطيه كيلوغراماً من الهريسة، فيستغرب عبودي بدوره طلب جوهر الذي لا يشتري الهريسة عادة ويسأله:

- «خير يا جوهر، ليس من عادتك شراء الهريسة؟».

فيرد عليه جوهر بنوع من اللامبالاة يظهر وكان الأمر عادي بالنسبة إليه: «أنت على حق، ولكن هناك مناسبة تستحق أن نقدم الحلوى لأجلها».

فيثير بهذا الكلام فضول عبودي الذي سيقوم بسؤاله:

- «وما هي؟».

فيبدأ ساعتها جوهر وبكل رزانة بسرد ما يريد سرده قائلاً، بحسب المخطط أيضاً:

* «لقد دعيت إلى لقاء تاريخي مع السيد الرئيس في الخامس عشر من الشهر الحالي، وأنا الوحيد الذي دعي من قريتنا».

فتجحظ عينا عبودي لما يسمعه ولا يصدق ما يقوله جوهر، ويشعر بحسد كبير نحوه.

ولكن الأمور جاءت مغايرة تماماً لما تصوره جوهر في مخططه، حيث أن عبودي لم يفعل كما رسم له جوهر في مخيلته، وإنما قام بوزن الهريسة وقدمها لجوهر وتابع عمله دون أن يوجه إليه أي سؤال عن سبب شرائه الحلوى، مما جعل جوهر يصاب بالخيبة، ويسأله بنبرة لا تخلو من العتب:

- «لم تسألني عن سبب شرائي للهريسة؟».

* «ولمَ أسألك؟ هل تريدني أن أقوم بالسؤال عن السبب كلما قام شخص بشراء قطعة هريسة؟».

- «عليك أن تسألني».

قال جوهر بنبرة صارمة مقرراً اختصار الطريق على عناد عبودي، فسأله هذا عن السبب، وقام جوهر برواية القصة له مضفياً على نبرته ما يليق بالمناسبات التاريخية من تلوينات صوتية، حتى تظنه في بعض الأماكن من حديثه يقرأ شعراً. ولكن عبودي، وعلى الرغم من استماتة جوهر، لم يبدُ عليه أي تأثر، واكتفى بالقول:

* «يا سيدي مبروك».

فعل ذلك وهو يتناول قطرميز البزر عن أحد الرفوف، ولم يكلف نفسه حتى بالالتفات إلى جوهر، ما تسبب لجوهر بالخيبة وولَّد في نفسه بعض الحقد على عبودي في تلك اللحظة، وتمنى

لو أنه يرفعه إلى فوق رأسه ويرمي به على الأرض، ولكنه أخذ الهريسة وانصرف.

وضع جوهر نصية الهريسة على الطاولة في غرفة الضيوف، ثم تناول بطانية وعلقها على الجدار فاكتشف أن حجمها ملائم جداً، فقام بأخذ قياساتها موضحاً لزوجته أنه سيكبِّر الصورة إلى هذا الحجم.

في المساء غادر جوهر القرية وقد وضع في جيبه كل مدَّخراته النقدية، وحطَّم حصَّالة ابنه التي كان فيها بعض القطع النقدية، ولم يترك زوجته قبل أن تخرج من عبِّها ما كانت قد دفنته هناك كثمن للجوز لحشوة المكدوس. وعاد نحو الساعة العاشرة ليلاً وفي يده كيس كبير تتدلى داخله بذلة رسمية مقلمة زرقاء اللون، معها قميص وربطة عنق انتقاهما له صاحب المحل بعد أن روى له سبب شراءه للبذلة. وفي اليد الأخرى كانت هناك علبة فيها حذاء أسود لامع، وعندما وصل إلى البيت خلع شرواله وثيابه الأخرى واستبدلها بالثياب الجديدة التي اشتراها للتو، ولم يُخفِ إعجابه بنفسه عندما وقف أمام المرآة. أما زوجته فقد وضعت يدها على فمها لتخفي ابتسامتها التي خرجت إلى شفتيها عنوة عندما شاهدت جوهر لأول مرة في حياتها في البذلة، ونعتته بنبرة نصفها سخرية ونصفها إعجاب:

- «خواجة».

ولكن أمين الفرقة الحزبية لم يبتسم عندما ظهر جوهر في بابه صباح اليوم التالي بتلك البذلة الزرقاء، فقد غضب ووبخه وطلب منه أن يذهب على الفور ويخلع هذه البذلة، وأوضح له أنه اختير للقاء بسبب شرواله، لأن اللقاء مع الفلاحين، وبالتالي فإن الأشخاص الذين يفترض أن تعرضهم نشرات الأخبار يجب أن يكونوا إما في شروال أو في قمباز. ومع أن جوهر امتعض للنبرة التي كان يتحدث بها أمين الفرقة معه، إلا أنه بلع الإهانة التي لا تستحق أن يتوقف المرء عندها مقارنة بالشرف الذي سيحصل عليه بعد تلك المقابلة المجيدة وبترشيح أمين الفرقة بالذات، والذي أكرمه اليوم وكلَّفه بأن يدون مطالب الفلاحين لكي يتم تقديمها في اللقاء للسيد الرئيس، وهذا شرف لا يحصل عليه حتى واحد بالمئة من المناضلين. السيد الرئيس سيمسك بين يديه الورقة التي كانت بين يدي جوهر، يا إلهي! أمر لا يصدق! وسيقرأ ما كتبه جوهر بخط يده، هذا كثير! كثير حقاً! يجب الانتباه إلى الأخطاء الإملائية. ولكن أين المشكلة؟ يمكن تنقيحها بمساعدة الأستاذ.

ولكيلا يُتَّهم جوهر بأنه عائلي الهوى لا سمح الله، وهذا ما يتناقض مع مبادئ الحزب، فقد توجه بداية إلى عائلة الخصوم في قريته، الذين كانوا بدورهم في حالة امتعاض لأن الخيار وقع على جوهر، ولكنهم لم يظهروا ذلك.

دوَّن جوهر المطالب، وكان على وشك الوقوف عندما سقط

به الكرسي الذي كُسرت إحدى أرجله، ثم سارت الأمور بسرعة لم ينتبه فيها جوهر لنفسه إلا في المستوصف، حيث كان الطبيب يلف له الجبس على يده، من تحت الكتف بقليل وحتى المعصم، ويعلمه:

- «ثلاثة كسور مضاعفة».

ممَّا جعل جوهر يحتج:

* «أف يا دكتور! ثلاثة كسور؟ لقد سقطت عن الكرسي وليس من الطابق العاشر».

- «لأنك ثقيل».

قال له الدكتور وتابع لف الجبس على يده.

في البيت كان عدد كبير من سكان القرية متحلقين حول فراش جوهر للاطمئنان على صحته، عندما أطلق جهاز الهاتف الخلوي نغمة مميزة جعلت جوهر يعلن للحاضرين بنبرة ارتياح:

- «الرفيق أبو طارق. لا بد أنه سمع بما جرى معي ولذلك يتصل ليطمئن».

وبالفعل، فإن ملامح الارتياح التي تعمقت على وجه جوهر كانت توحي بأن كلمات أبي طارق التي لم تكن مسموعة للحضور تعبِّر عن الاهتمام الذي تبديه قيادة الفرقة بصحة الرفيق جوهر، ولكن شيئاً ما قيل على الطرف الآخر للخط جعل جوهر يقفز من الفراش صارخاً:

- «هذا ليس كلاماً! بعد أن وصلت اللقمة للفم؟».

لم يتمكن أحد من سماع الجواب عن السؤال الذي أطلقوه جميعاً:

* «ما الذي حصل؟».

وذلك لأن الرفيق جوهر كان قد غادر الغرفة قبل أن يتناهى إلى سمعه سؤالهم، ولم يكن هذا يقلقه أصلاً.

في الفرقة الحزبية كان الرفيق أبو طارق يجلس خلف طاولته حين دفع جوهر الباب برجله ودخل صارخاً:

- «ما هذا يا رفيق أبا طارق؟ ألا يستطيع المواطن أن يكسر يده في هذا البلد؟ فوراً تقوم الحكومة بحرمانه من حقوقه المدنية، ما هذا؟!».

* «لا تحشر الحكومة في الموضوع».

قال أبو طارق بنبرة لا تخلو من التهديد. ثم أردف:

* «الحكومة لا علاقة لها بالموضوع، قيادة الفرقة اتخذت القرار».

امتعض جوهر أكثر.

- «أنتم؟ الحزب الذي أفنيت عمري وأنا أناضل في صفوفه؟ ولماذا يا رفيق أبا طارق؟ ما الذي فعلته حتى يعاقبني حزبي؟ هل هناك في النظام الداخلي ما يمنع المناضل من كسر يده؟».

* «لا تتفوه بهذا الكلام الفارغ يا رفيق جوهر. الفرقة لم تقرر

ذلك هكذا. الفرقة استشارت جهات مختصة. تم شطب اسمك لضرورات أمنية».

لم يفهم جوهر هذا التلميح القذر، كما وصفه في داخله، وتساءل: «أنا؟ لدوافع أمنية؟ ما هذا الكلام يا رفيق؟ إذا كان يمكن الاشتباه بالحجر لدواعٍ أمنية فإنه لا يمكن الاشتباه بي».

تململ أبو طارق في مكانه وبدا على وشك الانفجار، ثم نفث من صدره هواء حبيساً وطلب من جوهر الهدوء، وأوضح له أن الرفاق في فروع الأمن يشتبهون بأنفسهم ولا يشتبهون بجوهر، الأمر الذي أثلج صدر جوهر وجعله يهدأ قليلاً. بعدها بيَّن له أبو طارق أن الجهات المختصة التي شطبت اسمه من القائمة هي جهات أعلى مما يتصور، وهمس له من تكون ففغر جوهر فاهه وجحظت عيناه قليلاً وتساءل:

- «وصل الأمر إلى هناك؟».

* «نعم يا رفيق جوهر. ماذا تظن إذاً، المساعد عبدو اللي شطب اسمك؟ المساعد عبدو لا يمون على مؤخرته في هذه الموضوعات. هذه أمور لا مزاح فيها، ما أدراهم أن تحت الجبصين مواد ناسفة أو سلاح ما؟».

كاد جوهر يقفز إلى الوراء واستغرب: «أنا؟».

* «يا أخي أنا أعرفك. ولكن هؤلاء لا يعرفونك، وحتى لو عرفوك، فهذا أمر لا مجاملة فيه».

- «لا مشكلة، أحضر معي صورة أشعة تثبت أنه لا يوجد تحت الجبس شيء. نحن في عصر العلم والتقنيات».

* «وما أدراهم أن هذه الصورة ليدك وليست ليد شخص آخر؟ شغل مخك يا رفيق جوهر».

- «أحضر لهم تقريراً من الطبيب يثبت أن الصورة ليدي».

عندها انفجر أبو طارق ولم يعد يحتمل:

* «أخي، ما لك لقاء مع السيد الرئيس، وأعلى ما في خيلك اركبه. العمى! ما هذا يا؟!».

تأمَّل جوهر أبا طارق طويلاً، وكله يرتجف وشفتاه تتراقصان على وشك أن تنطقا شيئاً مهماً، ولكنه فضَّل عدم الكلام واكتفى بحركة من يده تدل على مدى ضيقه وانزعاجه واستدار منصرفاً.

في الطريق كان جوهر ينتحب ولكن دون أن يذرف دمعاً. ربما من الأصح القول إن روحه كانت تنتحب، وكان قد استسلم للأمر الواقع وأدرك أنه لا مجال للقاء الرئيس. ولكن أبا أنيس الذي ندهه من الخلف أيقظه من نحيب روحه، وأيقظ له جروحه حين أعلمه أن الإطار جاهز. ولكن، ورغماً عن الحسرة التي سيطرت عليه عندما شاهد الإطار في محل أبي أنيس المصور، فقد تفتق ذهنه عن فكرة ربما تحل له موضوعه، فطلب من أبي أنيس الحفاظ على الإطار عنده في المحل ريثما يعود.

كما اقتحم جوهر مكتب أبي طارق في قيادة الفرقة، قام باقتحام

مكتب الطبيب مدير المستوصف، الذي قام بتجبير يده، مما جعل الطبيب يجفل بادئ الأمر، وكان ينوي أن يوبخ جوهر على طريقته في الدخول عندما يلتقط أنفاسه. ولكن جوهر لم يفسح له المجال أبداً، فقد طلب منه فور دخوله أن ينزع له الجبس، مبرراً طلبه بأن اليد يده وهو حر فيها، ولكن الطبيب تعامل مع طلبه كما يتعامل مع شخص مختل عقلياً، وحاول أن يشرح له المضاعفات التي ربما تحصل إذا فك الجبس، غير أن جوهر لم يدعه يكمل، إذا أخرج من جيبه حفنة من النقود الورقية والمعدنية ودسها في جيب مريول الطبيب قائلاً:

- «حلال زلال عليك دكتور. فك لي الجبس».

فما كان من الطبيب إلا أن طرده ورمى له النقود في إثره، فقام جوهر بجمعها بيد واحدة موجِّهاً عدَّة تهم إلى الطبيب، أهمها أنه لا يقوم بخدمة المواطنين إلا بالواسطة. وهذا جعله يفكر في موضوع الواسطة، فاتصل بأحد أقاربه الذي كان على علاقة جيدة بالطبيب، وطلب منه أن يقوم بواسطة الخير، فجاء قريبه وطلب من الطبيب أن يساعد جوهر، ولكن القريب عندما علم ما هو الموضوع الذي يتوسط فيه شعر بخجل كبير وطرد جوهر بدوره كما يطرد ولداً مذنباً.

خرج جوهر ممتعضاً وقد بدأت تسيطر عليه فكرة المؤامرة، ولم يخرج من باب المستوصف حتى كانت قد اتضحت خيوط هذه المؤامرة:

- «السفلة! أنا أهتم بمطالبهم وأذهب إليهم لتسجيلها وهم يطعنونني في الظهر ويجلسونني على كرسي مكسور».

وهكذا، فقد تبين أن أفراد العائلة المنافسة وراء الموضوع، وأن الطبيب منخرط معهم في المؤامرة، وما قصة الكسور الثلاثة المضاعفة إلا أسطورة من نسج خياله من أجل تعقيد الموضوع. أيعقل أن يصاب شخص سقط عن كرسي بثلاثة كسور مضاعفة؟ هذا هراء.

لم يتمالك أبو طارق نفسه، وانفجر ضاحكاً حين سمع بفرضية المؤامرة، ما حدا بجوهر لاتهامه بالاشتراك بالمؤامرة، وبالإساءة لأهداف الحزب في العدالة والمساواة، وأنهم يميزون بين المواطنين. ولم يتوانَ عن توجيه نقد لاذع تداعى إلى ذهنه مع تيار التداعيات التي كانت تنساب في راسه، فاتهمه بالتملق وبأنه انتهازي، وقد حرم جوهر من المشاركة ليس بسبب الدواعي الأمنية كما ادعى، وإنما لأن جوهر لا يستطيع التصفيق بيد واحدة. ولكي يدحض له أبو طارق أقواله ذكره بأن عصام بيد واحدة وأن اسمه في رأس القائمة. وبما أن كل كلمة في هذه الساعات العصيبة على جوهر كانت توحي له بمخرج جديد من الأزمة، فقد خطر له أن يتخلص من يده، وتوجَّه فوراً إلى المستوصف ليطلب من الطبيب قطعها بحجة إصابتها بالغنغرينا. ولكنه في الطريق هدأ قليلاً وسخر من نفسه على هذه الفكرة السخيفة، وغيَّر طريقه إلى

اتجاه موقف الباص الذي يتوجه إلى قريتهم، واستسلم مرة أخرى للأمر الواقع وعادت روحة تنتحب من جديد.

ولكن وكما كانت تقول أمه، «لا شدة على مخلوق دامت». فقد سخَّر له القدر شخصاً من معارفه القدماء قادم إلى القرية في زيارة لأهله، سأله عن أحواله وسبب هذا الحزن الذي يتدفق من عينيه، ما دفع جوهر لأن يتنهد بحسرة ويقول:

- «إيييه. وظلم ذوي القربى أشد (مظاظة) على النفس».

ثم شرح له حجم المؤامرة المحاكة ضده وما جرى من أمر اللقاء، فنصحه الصديق بألا يستمع إلى كل هؤلاء، وبأن يتوجه إلى المساعد اسماعيل وهو يحل له كل المشاكل.

ولأن الغريق يتعلق بقشة، فقد نزل جوهر من الباص فوراً وركب في الباص المعاكس وتوجه إلى المساعد اسماعيل في أحد الفروع الأمنية. لم يتركه المساعد إسماعيل، الملقب بأبي صبحي، يكمل كلامه، ورفع سماعة الهاتف قبل أن يفهم ما يجري ووضع الهاتف على السماعة الخارجية، حيث سمع جوهر صوت الرفيق أبي طارق على الطرف المقابل يقول:

- «ألو».

ثم دار الحوار الذي سمعه جوهر كله وقام فيه المساعد اسماعيل بتوبيخ أبي طارق كما لو أنه يوبخ ولداً صغيراً، وفي الوقت نفسه كان أبو طارق يتحمل الإهانات صاغراً. وعلم جوهر

أن التضحية به تمَّت لا بسبب الذواعي الأمنية كما قال أبو طارق ولا بسبب الجبس، بل أن ذلك جرى فقط لأن المتنفذين في الناحية يريدون تسجيل معارفهم وأقاربهم. وكاد جوهر يجن جنونه عندما علم بوجود اسم أحد أولئك الذين يسمهم جوهر بالمعارضة، فقال لأبي طارق موبخاً عندما التقاه:

- «ألا تخجل من نفسك؟ تشطب من القائمة اسم "المناظل" وتضع اسم "المعارظ"؟».

وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها، وعاد جوهر يسجل المطالب، وأخذ الإطار من محل أبي أنيس ودفع ثمنه وجلس ينتظر اللقاء المنشود، يعدُّ حتى الدقائق في انتظاره.

وأخيراً جاء الموعد. ووجد جوهر نفسه يقف في آخر طابور مؤلف من ثلاثين شخصًا يخضع الواقفون فيه لعملية تفتيش دقيقة قبل أن يُسمح لهم بالدخول. وعندما وصل الدور إلى جوهر تم تفتيشه، وبطبيعة الحال لم يعثر على ما يثير الشبهات، وكاد الحلم يتحقق لو أن جوهر لم ينسَ بطاقة هويته في البيت. عندما طلبوها منه في البداية مد يده بثقة إلى جيب جاكيته الداخلي، ولكنه لم يجد شيئاً. ثم إلى جيب شرواله، فلم يجد هناك شيئاً أيضاً. عندها أخذ ينقِّب كالمجنون في جيوبه التي لم يعثر فيها على ما يثبت شخصيته، فطلب منه الحراس أن يغادر المكان، وعبثاً كان يحاول أن يستدعي لهم شهوداً يثبتون أنه جوهر المسجل اسمه

في اللائحة، حيث حمله شخص ووضعه عند السور الخارجي وطلب من الحراس عدم السماح له بالدخول.

في هذه المرة، وعندما كان جالساً في الباص العائد إلى القرية، لم تكن روح جوهر فقط التي تنتحب، كان كل شيء فيه ينتحب. كانت دموعه تنهمر بصمت وكان يتنهنه بين الحين والآخر. ولم يتحرش به أحد سائلاً عن السبب، فالجميع كانوا يعرفون السبب.

عانى جوهر من الاكتئاب لأكثر من شهر، ثم حمل الإطار وأخذه إلى دكان عبودي الذي نظر إلى جوهر الواقف داخل أضلاع الإطار ممسكاً به من طرفيه بكلتا يديه. واقترح عليه جوهر أن يعرضه في دكانه، فربما يشتريه أحد أبناء البلد فلا يضطر إلى حمله مرة أخرى إلى محل المصور أبي أنيس ليبيعه له بنصف ثمنه. فقبل عبودي العرض، وسأله عن سبب كبر حجم الإطار الذي كان جوهر قد تركه مفاجأة لأهل القرية ولم يخبر به أحداً، فقال جوهر:

- «هذا إطار الصورة».

* «أي صورة؟».

سأل عبودي مستوضحاً، فأجابه جوهر:

- «الصورة التي لم أتصورها».

المنفاخ

كان أبو سعيد يجر دراجته قربه عندما التقيته في الشارع صدفة. وبشكل عام، فأنا لم أره ولو مرة واحدة يركب هذه الدراجة. ذاكرتي لا تحتفظ له في أرشيفها بأي شريط يقوم فيه بقيادة هذه الدراجة. وبينما كان يصافحني لاحظ أنني أحدق في الدراجة، وربما قرأ في عيني هذا التساؤل. لا أعرف لماذا تظهر الأسئلة التي تجول في خاطري على وجهي ويتمكن من قراءتها الكثيرون، بمن فيهم أبو سعيد اليوم، الذي انطلق موضحاً السبب:

- «من يوم اللي سرقولنا المنفاخ ما عدنا استرجينا نركب عليها يا زلمة. بيخاف الواحد إذا ركبها تقوم تنفس ويتقرقط الجواني وتاع قعود رقع. ما عاد فيه أمان يا زلمة! درنا ظهرنا دقيقتين لقينا المنفاخ رايح. قول المنفاخ نص مصيبة. هذاك

النهار رابطها بالسجرة حد الجامعة، رجعت لقيتهن عم يقصوا الجنزير. بدهن يسرقوها كلها ولاد الكلب! شو هاذا يا زلمة، وين عايشين نحنا؟ على سيرة الجامعة. أني كنت بالجامعة عبعمل سناني. إذا عندك شي خربان روح عالجامعة، بيعملولك ياهن ببلاش. بيتقاتلو عليك الطلاب، تقول كلاب وعلقانين على عظمة هههههههه. شو فرقت دخلك بالجامعة ولا عند الدكتور؟ ما هوي الطالب يلي عبيعملك ياهن بيفهم شوي كمان، مش حمار بفرد مرة يعني. بعدين فيه أستاذ واقف عبيتفرج عليه. إذا صار ما صار بيتدخل بينقذك. عملنا التركيبة ببلاش. الدكتور قال بده عليها ست ألاف ليرة. من وين بدي جبله ست ألاف ليرة أني؟ قصِّبْني ويعني ما بجيب ست ألاف. الله وكيلك التقاعد مش من خمسة الشهر، من ثنين الشهر بيخلص، منستلمه من هون ومنسد فيه بواز العالم من هون. ميت واحد يبقوا عاملينلك كمين وأنت راجع عالبيت بس تروح تستلم الراتب. ما في واحد منهن بيمرقك من دون ما يشلحك اللي فيه النصيب. كل شهر بخلي بجيبتي خمسة وعشرين ورقة احتياط، ما بتعرف شو بيصير معه الواحد. هذاك النهار واقف هون وإلا بتوقف سيارة فيها ثنين سألوني وين شارع الخضر؟ صرت أشرحلهن ما كانوا يفهموا. قلت الظاهر جماعة غرب. طلعت معهن وصلتهن لشارع الخضر، وأني راجع مدري كيف ضربت إيدي عالجزدان لقيته رايح. نشترونا ولاد الحرام!

أني الجزدان معبيه وراق. تخمين فكروه محشي مصاري سرقوه. راحت الخمسة وعشرين ليرة. قول حدها جهنم الخمسة وعشرين ليرة، المصاري بتروح وتجي. بس الهوية. الواحد يضيع ابنه ولا يضيع هويته. بتعلق مع هالفروعة وبتبطل تعرف تخلص. قول شو بدنا نعمل؟ الخازوق وأكلناه. رحنا بلّغنا. شو بدهن يعملوا معنا يعني؟ بدهن يعلقونا؟ يا سيدي يعلقونا. أكثر من القرد ما مسخ الله. كتبنا الزبط بالمخفر ورحنا على هالبيت. هلق بس تكتب زبط بيعطوك رقم بتروح تراجع لتشوف شو صار. هذاك النهار مارق من حد المخفر قلت بمر بسأل إذا التقت الهوية معهن، قالولي شو رقم الزبط؟ أنا نسيان شو رقم الزبط. بس زتيتلهن رقم ثمانة وأربعين. قلت لحالي يا ربي تجي بعينه. بس ما إجت بعينه. طلع رقم واحد ثاني ثمانة وأربعين. قول الورقة اللي عليها رقم الزبط عندي ياها بالبيت، حاططها بصفط شكلاطة بالطاقة اللي تحت الليوك. عندي هيك صفط شكلاطه شكله حلو بحط فيه هالوراق أحلى ما ندحوشهن هون وهون ونبطل نعرف نلاقيهن بعدين. رحنا عالبيت فتحنا الصفط، الوراق اللي فيه منكوشة فوقاني تحتاني والورقة اللي عليها رقم الزبط رايحة. مدري مين يا زلمة بيظل ينكشلي بهالصفط! ليش مدري مين؟ بعرف مين. ابني الزغير الله لا يوفقه! بس يخلص جامعة بدي قلعه من البيت. متحمله بس منشان العالم. لو لا العالم الله وكيلك هلق بقلعه، ما

بستنى عليه لحتى يخلص جامعة، بس ما بدي العالم تحكي عليي. مدري أيا ابن كلب يا زلمة مطالع عليي إشاعة إني ملاقي ذهب مدري وين ومخبيهن عن وجه الدولة. هالشكل هذا شكل واحد شايف بحياته ذهب؟ الله وكيلك بحياتي ما داقر الذهب بإيدي، غير هالمبرومتين مسكناهن بإيدنا لمن اشتريناهن وحطيناهن بإيد المرا وقت العرس. ورجعنا مرة ثانية مسكناهن لمن شلحناها ياهن وبعناهن. غير هالمرتين مش داقر الذهب بإيدي منوب. وهذا الحمار مصدق، بيظل ينكشلي بغراضي. قال بلكي بيلاقي علامة الكلب! وأحسن شي صاير عم يقبع البلاط يدور تحته. آخ آخ. شو بدي يحكي الواحد ليحكي يا زلمة. بتعرف؟ أحياناً بقول منيح اللي هالدكنجية بيشلحونا مصرياتنا قبل ما نرجع عالبيت، وإلا الواحد لو ظل بجيبته قرشين ما بتعرف. كان اشتراله فرد وقوّص حاله وارتاح من هالحياة بفرد مرة. يالله. عمر بده يمضى».

الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية

لم يكن درويش فعلياً ينتمي إلى طبقة "الإنتلجنسيا"[1] التي يوحي بها مظهره الخارجي، القبعة الأوربية فوق الشعر الطويل نسبياً، وذقنه التي كان يضمخها الشيب، والبذلة البنية التي يرتديها بالتناوب مع البذلة الرمادية، وفوق ذلك كله نظارته السميكة ذات الإطار البني، وكذلك طريقة كلامه ومعظم الموضوعات التي يطرقها والمصطلحات التي يستخدمها في أحاديثه، والكتاب الذي كان يحمله دائماً في جيب الجاكيت أو تحت إبطه، إضافة إلى الكتب المبعثرة في جميع زوايا بيته. كل ذلك كان يقدم صورة مزيفة عنه. أما الطبقة الحقيقية التي كان ينتمي إليها درويش فهي

"حثالة البروليتاريا"، التي كان هو يفضل أن يطلق عليها "البرولتاريا الرثة"، ظنا منه أن "الرثة" أرفع منزلة وأخف وطأة من "حثالة".

كان درويش يدرك هذه الحقيقة، ويمكن القول إنه كان يخوض حرباً لا هوادة فيها مع الكتب في محاولة منه للالتحاق بركب الإنتلجنسيا. كل كلمة كان يحاول أن يفهمها، فمن أجل أن يتمكن من تحليل مصطلح: مرض اليسارية الطفولي، قرأ كما لم يقرأ رفيق من قبل. وما كان يحز في قلبه أنه من كل ما قرأه وأعاد قراءته لم يكن يفهم شيئاً، فكانت دمعة تترقرق في عينيه ويرمي الكتاب جانبا ويقول يائساً وحزيناً:

- «لا نفع من هذا الكلام. أنا حمار معبأ ببنطلون. مهما قرأت فلن أفهم».

مصطلحات أخرى كثيرة حاول أن يفهمها، ولكن مصيرها كان مثل مصير مرض اليسارية الطفولي، فلم يكن يستخدمها. ولكن أكثر مصطلح ارتاح له هو "الإمبريالية"، وهي أكثر كلمة كانت تتردد في الاجتماعات الحزبية. لهذا فمعظم نقاشاته في القرية كانت تدور حولها، كان لديه استعداد لكي يتحدث ساعة كاملة عن الإمبريالية، ولكن كل ما كان يقوله كان يتلخص بكلمتين "الإمبريالية حقيرة"! وقد كان دائماً يتولد لديه شعور بأن ما قاله لم يكن يصل إلى محدثه، ولذلك يسأل:

- «خيو باختصار، شو أحقر شي عندك؟».

* «أحقر شي عندي حماتي».

أجابه محدثه في إحدى المرات مداعباً، فقال له درويش فوراً:

- «الإمبريالية أحقر من حماتك».

وهكذا، فقد كانت الإمبريالية مرة أحقر من الحصاد، ومرة أحقر من ضيف آخر الليل، ومرة أحقر من شخص لم يردَّ ديناً عليه. لم يبقَ أمر حقير لم يُذكر أمام درويش، وكانت الإمبريالية أحقر منه دائماً.

شاب لديه الرغبة في السفر إلى الخارج من أجل الدراسة ولكن ليس لديه المال، نصحه أحدهم بأن يتودد إلى درويش لكون حزبه يرسل الطلاب إلى الدراسة في أوروبا الشرقية. وهكذا ذهب الشاب إلى درويش وأعرب عن رغبته في الانتساب إلى الحزب، فما كان من درويش إلا أن ضحك مقهقهاً ببطء وقال:

- «أتظن أن الانتساب إلى الحزب هكذا، فقسنا بيضتين وقليناهما؟ عضو الحزب يجب أن يكون صلباً ومثقفاً مثله مثل الطبل الصيني أنّى ضربته يرن[2]».

فوافق الشاب أن يكون مثل الطبل الصيني، بالرغم من عدم تقبله داخلياً لتشبيهه بالطبل. وبناء على موافقته، أخذ درويش على عاتقه واجب تثقيفه حتى يصل إلى مرحلة الطبل الصيني، ويمكن اعتباره ساعتها من الإنتلجنسيا.

- «ما هي الإنتلجنسيا؟».

تساءل الشاب. فردَّ درويش بنبرة توحي باعتداد مطلق بالنفس وابتسامة تولِّدها عادة الثقة بالنفس:

* «لا تقلق. نصف شعبك لا يعرف ما معنى هذه الكلمة، بل قل ثلاثة أرباعه. الإنتلجنسيا، عمي، تعني المثقف الثوري».

ولا نبالغ إن قلنا إن الشاب أُعجب بمستوى درويش الثقافي وتمنى أن يصبح مثله ذات يوم، بغض النظر عن نجاحه في الحصول على المنحة الخارجية للدراسة أم لا.

بطبيعة الحال، لم يكن الحديث في اللقاء الأول بين الشاب ودرويش لينتهي دون التطرق إلى مسألة الإمبريالية التي شرح له درويش حولها مطولاً، ثم سأله في الختام:

- «ما هو أحقر شيء بالنسبة إليك؟».

فأجابه الشاب ضاحكاً:

* «عندما أكون في المدينة وأصاب بالإسهال فلا أجد مكانا أقضي الحاجة فيه».

- «الإمبريالية أحقر من ذلك».

أجابه درويش بشكل آلي وبمنتهى الجدية. ثم استل من جيب الجاكيت كتاب (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) وقدمه إليه قائلاً:

- «خذ. هذا الكتاب يعطيك فكرة كاملة عن الإمبريالية».

أخذ الشاب الكتاب وقرأه بحماسة تعادل رغبته في الحصول على المنحة الدراسية. ولم تكد شمس اليوم التالي تشرق حتى كان الشاب أمام بوابة درويش يطرقها والكتاب في يده.

شرب درويش قهوة الصباح برفقته وطلب منه أن يطرح استفساراته إن كان لديه استفسارات. فسأله الشاب عن الرأسمالية، وانطلق درويش يوضح له مقدار حقارتها هي الأخرى، فما كان من الشاب في نهاية الحديث إلا أن تساءل:

- «أي أنها مثل الإمبريالية».

* «لا لا لا. ليس الأمر كذلك تماماً. هناك فرق بدرجة الحقارة. ماذا قلت لي عن أحقر شيء بالنسبة إليك؟».

- «حين أصاب بالإسهال في المدينة ولا أجد مكاناً لقضاء الحاجة».

كرر الشاب ما قاله في اليوم السابق. فطلب منه درويش:

* «أعطني شيئاً أحقر من ذلك».

- «عندما أصاب بالإسهال وأجد مكاناً، ولكن أحداً يشغله في الداخل».

* «الرأسمالية هي الأولى. والإمبريالية هي الثانية. هل عرفت الفرق الآن؟».

- «نعم، فهمت».

قال الشاب. وسأل درويش عن كلمة أخرى كان يود شرحها له:

- «وما هي الاشتراكية؟».

فوجئ درويش بالسؤال الذي لم يتعرض له طوال تاريخيه النضالي. سُئل عن الديسبلين وأجاب على السؤال. سُئل عن البرجوازية الطفيلية والكمبرادور والكثير من المصطلحات المبهمة الأخرى، ولكن أحداً لم يسأله يوماً عن الاشتراكية، وهو بدوره كان يظن أن معنى هذه الكلمة بدهي لا يحتاج إلى الشرح، ولذلك تململ في مكانه وشعر للحظة أنه عاجز عن الإجابة عن هذا السؤال المباغت، ولكن بديهته سرعان ما أنقذته، فقال بثقة بالنفس:

* «الاشتراكية هي عندما تصاب بالإسهال في المدينة وتجد الششمة أمامك على الفور، ولا يكون داخلها أحد».

ثم رشف من فنجان قهوته وعلى وجهه ملامح الارتياح، ونظر إلى ساعته ملمّحاً للشاب أن موعد عمله اقترب، خشية أن يتذكر ذلك أمراً آخر يسأله عنه.

ملاحظات:

(1) درويش هو الوحيد بين رفاقه الذي يستخدم هذه المفردة (إنتلجنسيا)، فجميع رفاقه يستخدمون مصطلح المثقفين الثوريين بدلاً من الإنتلجنسيا، ولكن درويش شعر بسعادة غامرة عندما اكتشف هذه الكلمة، إضافة لما تمنحه إياه من الرماد الذي يذره في العيون لخلق الصورة المزيفة عنه.

(2) (مثله مثل الطبل الصيني أنى ضربته يرن) عبارة قرأها درويش في أحد الكتب التي لم يفهم محتواها.

ممدوح حمادة

كاتب سوري مقيم في بيلاروس منذ العام 1984، حيث درس فيها الصحافة. عمل مدرِّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثم درس الإخراج السينمائي في أكاديمية الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيوني منذ العام 1995. له الكثير من الأعمال الساخرة (منها: بطل من هذا الزمان، بقعة ضوء، ضيعة ضايعة، الخربة، ضبوا الشناتي) وعدَّة أعمال موجَّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير بشكل متقطِّع، نشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسية، وشارك في معارض دولية مختلفة. نشر العديد من قصصه في الصحف العربية والبيلاروسية. وترجم عدَّة مجموعات قصصية.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.

2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية. 1999.

3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال، 1999.

4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.

5. جلَّنار، رواية، 2001.

6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية، 2014.

7. دفتر الأباطرِة، مجموعة قصصية، 2016.

8. دفتر الحرب، مجموعة قصصية، 2016.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



كانت القرية، دائماً، رمز البساطة في نظام حياتها وفي التركيبة النفسية للقرويين، الذين نادراً ما يعانون مما يسمى «فوبيا» أو «مانيا»، ويتقبلون كل ما يجري معهم كأمر طبيعي مهما كان قاسياً.

كان هذا في تلك الحقب الزمنية التي كان فيها الزرع يطعم من يعمل بالأرض، ويوفر له فائضاً للبيع يؤمّن له جزءاً مهمّاً من تكاليف حياته. أمّا بعد أن أصبحت الزراعة عملاً خاسراً، وفي بعض الأحيان عبئاً ثقيلاً على الفلاح لا يوفر لصاحبه أدنى مقومات الحياة، فقد اختلطت القرية مع المدينة بفعل الهجرة التي تسببت بها مختلف الأزمات، ما ولّد مفارقات حادة بطلها ذلك الانسان الذي فُرض عليه في المدينة نمط حياة جديد، وفي الوقت نفسه بقيت عاداته وتقاليده وارتباطاته بالقرية متينة، الأمر الذي ولّد لديه ازدواجية جعلته شخصية ثرية ومتنوعة العناصر. هذا الاحتكاك الذي حصل عبر الهجرات، وكذلك بفعل التطور التكنولوجي الكبير الذي حصل، نقل أيضاً جزءاً من المدينة بعلاقاتها ونمط حياتها إلى القرية، مما شكل صدمة لجزء من القرويين الذين ظل تفكيرهم مبنياً على نمط العلاقات الريفية القديمة.

كل ذلك شكّل، وما زال يشكّل، مصدراً مهمّاً للأدب والدراما. في هذا الكتاب عدد من تلك الحكايات التي تجري أحداثها في قرية أم الطنافس، وهو اسم اتخذ ليكون رمزاً للقرية في جميع الأعمال التي تم التطرق خلالها إلى القرية. هذا سيكون دفتر القرية الأول وسيعقبه في المستقبل دفاتر أخرى، لأن حكايات القرية لا تنضب.



ISBN 978-9933-540-27-2

9 789933 540272 >



